بيتر و. إديوري

قبرص والحروب الصليبية

دار الملتقى للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

1997

الناشر

دار الملتقى للطباعة والنشر

قبرص ـ ليماسول

ص . ب 6527

بيروت ـ لبنان

ص . ب 136582

مدخل

انتزع ريتشارد الأول، ملك إنكلترا، جزيرة قبرص من حاكمها البيزنطي سنة 1191، خلال الحملة الصليبية الثالثة؛ وبقيت تحت الحكم الغربي حتى الفتح العثماني سنة 1570 ـ 1571. ومن التسعينات في القرن الثاني عشر حتى السبعينات في القرن الخامس عشر، ظلت الجزيرة مملكة محكومة من قبل أعضاء من عائلة لوزينيان. التي قدمت من بواتو في غربي فرنسا وفرضت طبقة أوروبية جديدة من الملاكين العقاريين، وهيراركية كنسية كاثوليكية، على السكان اليونانيين الأصليين؛ على أن نظام عائلة لوزينيان وفّر فترات طويلة من الاستقرار السياسي، وفترة مرموقة من الازدهار امتدت حتى أواخر القرن الرابع عشر. وفي القرن الثالث عشر، كانت الجزيرة وثيقة الصلة بالدول اللاتينية في سوريا وفي الأراضي المقدسة بروابط سياسية، واجتماعية، واقتصادية. وبسقوط آخر المعاقل المسيحية في أيدي المسلمين في عام 1291، تحولت الجزيرة إلى مركز هو الأبعد شرقاً للمسيحية اللاتينية في البحر الابيض المتوسط.

إن هذه الدراسة الجديدة المبنية على بحث أصيل، تتأثر حظوظ قبرص

في ظل سلالتها الملكية، ودورها في الحروب الصليبية، وفي المواجهة بين المسيحي والمسلم في الشرق الأدنى حتى السبعينات من القرن الرابع عشر حين أصيبت بضعف بالغ في حرب لها مع جنوى.

1

الاحتلال

ظلت قبرص، طوال 380 عاماً، بين احتلالها على يدي الملك ريكاردوس الأول، عاهل انكلترا، في مايو عام 1191، حتى سقوط فمغوستا بأيدي الأتراك في أغسطس، عام 1571، واقعة في مدار التوسع الأوروبي الغربي. ولقرن قبل غزو ريكاردوس، أي في زمن الحملة الصليبية الأولى (1095 ـ 1099)، كان الفرنجة، أو اللاتين، كما عرف الغربيون أحياناً كثيرة، قد اندفعوا بصورة مثيرة نحو الأراضي المحيطة بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. كانوا ممتلئين بالحماس لانتزاع الأماكن المقدسة في القدس من السيطرة الإسلامية، ذوي عزم يعززه الأمل بالخلاص والشوق إلى المغامرة؛ زحفت الأعداد الكبيرة من الفرسان والحجاج عبر أوروبا وآسيا الصغرى، واحتلت مناطق ذات أهمية في سوريا والأراضي المقدسة. وفي أعقابها جاء المستوطنون والتجار، وبمساعدتهم وطّد الفاتحون قبضتهم على الأراضي التي كانوا قد احتلوها. غير أن المسلمين استطاعوا في عام 1187، أن يستعيدوا القدس وغالبية المناطق الأخرى التي كانت خاضعة للغربيين، فردت أوروبا المسيحية على ذلك بحملة صليبية جديدة، هي الثالثة. وكان

الملك ريكاردوس قلب الأسد بين الذين قدموا إلى الشرق في هذه الحملة الجديدة، وهو الذي أضاف، خلال حملاته، قبرص إلى الأراضي التي كانت واقعة تحت الحكم اللاتيني.

كانت قبرص تختلف من نواح هامة عن الأراضي التي افتتحت أثناء الحملة الصليبية الأولى وبعدها. الجزيرة ولاية بيزنطية، فهي إذاً لم تنتزع من المسلمين بل من اليونانيين (الروم) المسيحيين؛ ثم إن المجتمع القبرصي الذي خضع للسيطرة الغربية بعد ذاك، بقي إلى حد كبير يونانياً في ثقافته، ولغته وطقوسه. وجاء استيلاء الصليبيين على أرض مأهولة من قبل مسيحيين، خاضعة لحكم مسيحي، لا أمام خطر إسلامي مباشر، يسجل انحرافاً جديداً؛ ثم إنه تكرر على نطاق أشد اتساعاً إلى حد كبير بعد استيلاء جيش الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية في عام 1204. ومنذ عام 1192، حكمت قبرص عائلة صليبية، منشأها من بواتو، هي عائلة لوزينيان. ومنحها حكمها الازدهار ـ حتى الانهيار الاقتصادي في أواخر القرن الرابع عشر، على الأقل، ـ وشهد إدخال مجموعة من المؤسسات والتأثيرات الأوروبية.

وإذا كان نظام لوزينيان يعود بأصوله إلى الحروب الصليبية، إلا أنه بقي فترة طويلة بعد انتهاء الحروب الصليبية على الأرض المقدسة. وبقيت الدول المسيحية في سوريا وفلسطين حتى عام 1291، غير أن المسلمين احتفظوا بالقدس نفسها معظم القرن الثالث عشر. وخلال هذه المدة أصبحت قبرص ذات صلة حميمة بدول اليابسة بواسطة روابط سلالية، وعسكرية وتجارية؛ وبذلك صارت معنية بالحملات الصليبية إلى الشرق، واكتسبت دوراً استراتيجياً في المواجهة بين المسيحية

والإسلام. والواقع أن العقود الأولى من عهد لوزينيان زامنت ذروة النشاط الصليبي في شرقي البحر الأبيض المتوسط. إلا أن احتمال استعادة القدس تراجع مع تقدم القرن الثالث عشر؛ ثم تزايدت كذلك عقبات شن حملات صليبية جديدة. بعد ذلك جاء فَقْدُ عكا والممتلكات المسيحية الأخرى في سوريا في عام 1291 ليسجل نهاية مرحلة. عند ذاك وأصبحت قبرص عندئذ المركز الأبعد الوحيد للمسيحية الغربية في شرقي البحر الأبيض المتوسط، وبات عليها أن تجد طريقة للحياة بسلام مع الحكام المسلمين على اليابسة المقابلة، وأن تبذل، في الوقت نفسه، وسعها من أجل ازدهارها التجاري.

وإذا صح أن الحديث عن الحروب والمشروعات الصليبية، قد تواصل في القرن الرابع عشر، ثم بعده، فإن الذي نفذ منه بالفعل كان قليلاً. وفي الستينات من القرن الرابع عشر، أخذ بطرس الأول، ملك قبرص، المبادرة واندفع في حملات عدوانية على سلطنة المماليك الذين كانوا طوال قرن يحكمون مصر وسوريا والأراضي المقدسة؛ غير أن جهوده انتهت بمقتله في عام 1369. وفي عام 1373 ـ 1374، قام الجنويون بغزو قبرص؛ واستولوا على فمغوستا، الميناء الرئيسي، وفرضوا الجزية على الجزيرة. عندها لم يعد لقبرص أي دور هام لاحق في تاريخ الصليبيين؛ وبقيت الجزيرة تحت سيطرة اللوزينيانيين حتى السبعينات من القرن الخامس عشر؛ وفي عام 1489 ضمتها البندقية إليها رسمياً. على أن أيام الحملات الصليبية إلى الأراضي المقدسة كانت قد أصبحت آنذاك ماضياً بعيداً.

ولفهم خلفية الفتح الذي حققه ريكاردوس، ينبغي لنا أن ننظر في

تاريخ قبرص السابق، وفي الحظوظ المتغيرة للفتوح الصليبية في سوريا، معاً. المعروف عن الجزيرة بين القرن السابع ونهاية القرن الحادي عشر، هو قليل نسبياً. وحتى استيلاء البيزنطيين عليها استيلاء تاماً، كان العرب واليونانيون قد حكموها حكماً مشتركاً. والظاهر، عند الحملة الصليبية الأولى، أن قبرص كانت ولاية متخلفة، ضئيلة الأهمية، وأن الحكام والأساقفة الذين يرسلون من القسطنطينية كانوا يحكمون شعباً محلياً، أغلبيته ناطقة باليونانية، لكنه لا يزال يحتفظ بآثار من صلاته السابقة بالعالم العربي.

أما في القرن الثاني عشر، فانتعشت حظوظها بفعل الحافز الاقتصادي الذي وفّره قيام الدول اللاتينية في سوريا وفلسطين، من ناحية جزئية. .وأدت نجاحات الحملة الصليبية الاولى إلى تشجيع الجمهوريات البحرية الإيطالية على المتاجرة في شرقي البحر الأبيض المتوسط، وانتفعت قبرص من موقعها على الطرق البحرية من الغرب. وفي عام 1126، نالت البندقية امتيازات تجارية في الجزيرة؛ والواضح أن جالية من أوروبا الغربية كانت مقيمة في ليماسول عند وصول ريكاردوس عام 1191.

وكان هذا الانتعاش في قبرص جزءاً من نمط أوسع من انبعاث بيزنطي في الشرق، استمر حتى السبعينات من القرن الثاني عشر. وقد ساعدت الحملة الصليبية الأولى على جعل استعادة السلطة اليونانية الجزئية ممكنة في الأناضول؛ وفي منتصف القرن الثاني عشر، تمكن الأمبراطوران جون ومانويل كومنينوس من ترسيخ سيطرتهما على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، ومن التأكيد على سيادة بيزنطية على إمارة أنطاكية اللاتينية. واشترك الأباطرة اللاحقون في الطموح إلى جعل

فتوحات الصليبيين في دائرة نفوذهم، واستغلوا قبرص والموارد القبرصية لهذا الغرض. غير أن الوضع البيزنطي في شرق البحر الأبيض المتوسط تدهور في السبعينات والثمانينات من القرن الثاني عشر تدهوراً جذرياً؛ وجاءت الهزيمة اليونانية على أيدي الأتراك في ميريوكيفالون في عام 1176 دليلاً على ضعف عام أوسع، وإيذاناً بنهاية التدخل البيزنطي في الدول المسيحية في سوريا وفلسطين. والأسطول الأمبراطوري الذي كان في قسم كبير من عهد مانويل كومنينوس (1143 ـ 1180) يشاهد في الشرق بصورة متكررة، أهمل فضعف إلى حد عجز معه عن احتواء القرصنة في بحر إيجه. ثم إن انحطاط النفوذ اليوناني ازداد بفعل انعدام الاستقرار السياسي الذي عاد فظهر في الأمبراطورية بعد وفاة مانويل. ومع أن قبرص بدت مزدهرة، فإن الحكومة في القسطنطينية وجدت أنها لم تعد الآن تملك القدرة على الدفاع عنها.

وفي عام 1184، استولى ايزاك كومنينوس، أحد أفراد العائلة المالكة، على السلطة في الجزيرة، وأعلن نفسه أمبراطوراً. هو ابن شقيق الأمبراطور مانويل. كان حاكماً في كيليكيا في منتصف السبعينات من القرن الثاني عشر؛ ثم قضى بعض الوقت سجيناً لدى الأرمن الكيليكيين الذين استولوا على السلطة حين انهارت السلطة البيزنطية في المنطقة، وأطلق سراحه عام 1182. على أن الذي جرى بعد ذلك غير واضح: المؤرخ اليوناني نيسيتاس كونياتس يقول إنه زوّر رسائل عيّن فيها نفسه حاكماً على قبرص، ولكن خصومة نيسيتاس الواضحة له تثير الشك في شهادته؛ وهنالك من يقول إن ايزاك عيّن، بصورة شرعية، في هذا المنصب من قبل الأوصياء على ألكسيوس الثاني الصغير حوالى عام 1183؛ ثم أعلن العصيان بعد أن قام أندرونيكوس كومنينوس بالانقلاب

في أواخر ذلك العام. ولتأمين الدعم لنفسه، استدار ايزاك إلى الصقليين الذين عجّل غزوهم للأمبراطورية البيزنطية عام 1185 بخلع أندرونيكوس. وفي عام 1187 هزم الأميرال الصقلي، والقرصان، مرغريتون، القواديس التي بعث بها الأمبراطور الجديد ايزاك أنجلوس الثاني، لاستعادة قبرص. ولفترة مؤقتة، كان كومنينوس آمناً في ملكيته للجزيرة، غير أنه برحيل أسطول مرغريتون من الشرق عام 1188، وبوفاة الملك وليم الثاني الصقلي في السنة التالية، وجد نفسه محروماً من حليفه الوحيد.

كذلك شهدت السبعينات والثمانينات من القرن الثاني عشر انهياراً شبه كلي للدول اللاتينية في الشرق. في الستينات من هذا القرن، كانت قوات مملكة القدس، في ظل الملك أموري، قد استطاعت أن تبادر بالهجوم وأن تغزو مصر آملة أن تخضعها للسيطرة المسيحية، فيما كان الوضع في سوريا، أبعد إلى الشمال، مستقراً في الأساس، مع أن الرها كانت قد سقطت في الأربعينات من القرن، وكان الضغط الإسلامي قد تمكن، بصورة تدريجية، من خرق حدود إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس. غير أن الوحدة الإسلامية والفُرقة المسيحية اجتمعتا لتؤديا إلى الوصول إلى عكس هذا الوضع تماماً. ففي عام 1174، استولى صلاح الدين الذي كان يحكم مصر منذ عام 1169، على دمشق؛ وفي سنة 1183 أضاف حلب إلى سلطته. بذلك أصبح الآن سيّد جميع الأراضي التي تحيط بالممالك الصليبية. قبل ذلك، لم يحدث أن وجد اللاتين أنفسهم في مواجهة حاكم مسلم واحد يسيطر على جميع الأراضي التي تقع وراء حدودهم؛ وبعد وفاة أموري عام 1174، تركت الحكومة الضعيفة والانقسامات بين النبلاء، مملكة القدس بدون سياسة

متماسكة، متناسقة لمقاومة التهديد الماثل على هذا الشكل. وفي تموز/ يوليو عام 1187 غزا صلاح الدين الجليل، وتمكن، بفضل انعدام الثقة المتبادلة، وغياب التصميم بين القادة المسيحيين بالدرجة الأولى، من أن يناور وأن يتغلب على قوات المملكة اللاتينية في معركة حطين. ووقع ملك القدس، غي لوزينيان، أسيراً إلى جانب عدد من الشخصيات الأخرى البارزة.

بعد ذلك، اندفع الجيش الإسلامي الظافر يحتل جميع الأراضي المقدسة تقريباً، بما في ذلك القدس نفسها بدون مقاومة جادة. وباستثناء طرابلس وأنطاكية، كانت صور هي المدينة الرئيسية الوحيدة التي بقيت في أيدي المسيحيين؛ وقد أنقذها وصول نبيل مقتدر، ذي صلات جيدة، من شمالي إيطاليا، في الوقت المناسب، هو كونراد مونتفرّات. أطلق سراح غي لوزينيان عام 1188، غير أن كونراد الذي كانت له طموحاته الخاصة، رفض السماح له بدخول صور. وفي أغسطس عام 1189، بدأ غي الذي لم يرهبه هذا الرفض، بدعم من قبل الذين بقوا مخلصين له، بمحاصرة عكا، وهي ميناء هام سقط بأيدي المسلمين في عام 1187 بدون أية مقارمة. وفي الوقت نفسه، استجابت اوروبا، بقيادة الأمبراطور الغربي فريدريك بربروسّا، وملكي فرنسا وانكلترا، ولو بشيء من البطء، للنداء إلى القيام بحملة صليبية جديدة لاستعادة الأمكنة المقدسة المسيحية وإقامة مملكة القدس من جديد.

إن قصة الحملة الصليبية الثالثة (1189 ـ 1192) كثيراً ما أعيدت روايتها. ريكاردوس حمل الصليب باكراً، في نوفمبر عام 1187، إلا أن سلسلة الصراعات السلالية في الفترة التي سبقت صعوده إلى عرش

انكلترا عند وفاة والده في يوليو عام 1189، أخّرت انطلاقه. وفي يوليو عام 1190 كان على استعداد للانطلاق. والواقع أن فرقة متقدمة بقيادة رئيس أساقفة كنتربري وصلت إلى صور بالفعل في منتصف سبتمبر، فيما كان المتوقع للملك أن يصل في وقت لاحق في ذلك الخريف عينه. على أنه لا ريكاردوس ولا ملك فرنسا، فيليب أغسطس، اللذان انطلقا في الحملة في وقت واحد، استطاعا أن يصلا إلى أبعد من صقلية. إن ريكاردوس الذي كان يتحرك بمراحل سهلة وصل مسّينا حوالى آخر سبتمبر؛ هنا وجد وضعاً يتطلب تدخله. شقيقته جوأنّا كانت أرملة الملك وليم الثاني الذي توفي قبل عشرة أشهر. لم يكن له أبناء؛ حاكم صقلية الجديد، نسيبه غير الشرعي تنكرد ليكّيه زجّها في السجن، واحتجز مهرها، ووضع يده على الإرث الذي كان وليم قد تركه لهنري الثاني، والد ريكاردوس. وبسلسلة من أعمال اعتباطية، استطاع ريكاردوس أن يستغل طبيعة نظام تنكرد غير المستقرة لإجباره على إطلاق سراح جوأنّا وتقديم عروض سخية للتعويض عن أعماله السيئة. وانتهت المسألة بأن ضمن تنكرد دعم ريكاردوس له في وجه منافسه الأمبراطور هنري السادس، من آل هوهنشتاوفن. غير أن هذه المناورات استغرقت وقتاً؛ ولم يتم الاتفاق النهائي بين الحاكمين، إلا بعد أن كان الوقت قد تأخر كثيراً لاجتياز البحر إلى فلسطين بأمان. ولذلك صرف الصليبيون الانكليز والفرنسيون الشتاء في صقلية يعيدون تجهيز مراكبهم. وقبل العاشر من أبريل، عام 1191، لم يكن يمكن لقوات ريكاردوس ان تستأنف مسارها. ومع ذلك، فقد علق الأسطول في عاصفة. وفي 22 أبريل وصل ريكاردوس إلى رودس، حيث أصيب بالمرض؛ على أنه حين عاد إلى متابعة الرحلة ثانية في أول مايو واجه

المزيد من الطقس الرديء.

وصف ريكاردوس ما حدث بعد ذلك في رسالة مؤرخة في 6 مايو/ أغسطس، قال:

«. . . فيما كنا نتابع رحلتنا، جرفنا إلى قبرص حيث أمّلنا أن نجد الملاذ الذي لجأ إليه رفاقنا الذين تحطم مركبهم. غير أن الطاغية (ايزاك كومنينوس). . . أتى على عجل بقوة مسلحة تسليحًا كثيفاً ليمنعنا من دخول الميناء. سرق ونهب ما أمكن من رجالنا الذين عانوا من تحطم المراكب وسجن أولئك الذين كانوا يموتون جوعاً. لم يكن غير طبيعي أن نهبّ إلى الثأر. خضنا المعركة مع عدونا، وأحرزنا، بفضل المعونة الإلّهية، نصراً سريعًا. هو مهزوم ومقيد؛ نقبض عليه مع ابنته الوحيدة. لقد أخضعنا لسلطتنا كامل جزيرة قبرص بكل نقاطها القوية. . .».

والظاهر أن عدداً صغيراً من السفن انفصل أثناء العاصفة التي ضربت الأسطول قبل أن يصل رودوس، وأسرع قبل العاصفة إلى قبرص، حيث تحطم ثلاث منها. وسجن الناجون وأسيئت معاملتهم بأوامر من ايزاك، فيما حفظ لنا كاتب سوري من الفرنجة سرداً خيالياً في الظاهر كيف أن عزمه على القضاء عليهم أحبط بفضل تضحية مرتزق نورماني، في خدمته، بنفسه. بعد ذلك كانت السفينة التي وصلت إلى قبرص تحمل جوأنا شقيقة ريكاردوس، وبيرينغاريا النافارية التي ستكون عروسه في المستقبل. ورست مقابل ساحل ليماسول؛ هنا قدّم ايزاك إثباتاً إضافياً لسوء نيته بمحاولته اجتذاب المرأتين إلى الساحل. لعل نيته

كانت اتخاذهما رهينتين في وجه احتمال مهاجمة ريكاردوس للجزيرة. وفي مساء الخامس من مايو، استطاع ريكاردوس مع القسم الأكبر من أسطوله الذي عصفت به الريح، أن ينضم إلى جوأنا وبيرينغاريا. وحين اطلع على أعمال السلب التي قام بها ايزاك، قرر أن يثأر منه؛ وفي اليوم التالي نزل إلى البرّ بجوار ليماسول.

إن التقارير التي لدينا عن سير الأحداث في الأسابيع التالية متناقضة، على أنه يحتمل انها تتابعت على الوجه التالي. حاول ايزاك أن يقاوم نزول القوات إلى الساحل، لكن قواته نحّيت جانباً، ودخل ريكاردوس إلى ليماسول. بعد ذلك هزم الملك القبارصة في مناوشة في موقع كولوسي المجاور كما ذكر أحد المصادر، وانسحب ايزاك. وعاد ريكاردوس إلى ليماسول حيث احتفل في 12 مايو بزواجه على بيرينغاريا. عند هذا الحد، جاء ايزاك يعرض الاتفاق على أساس أن يقوم بنفسه بالخدمة تحت ريكاردوس في فلسطين. والظاهر أن ريكاردوس الذي كان وصوله إلى حصار عكا ينتظر بحرارة، كان على استعداد لقبول مثل هذا الاتفاق؛ على أنه من الواضح أن ايزاك لم يكن جاداً، أو لعله راجع نفسه، إذ سرعان ما فرّ فور الوصول إلى الاتفاق. ويبدو أن هذا الحدث هو الذي دفع بريكاردوس إلى الإقدام على احتلال الجزيرة بكمالها. وجّه أسطوله للإبحار على الساحل إلى كيتي أو فمغوستا؛ المصادر هنا غير متفقة؛ ثم زحف إلى الداخل نحو نيقوسيا. وفي قرية تريميتوشا هزمت قوات ايزاك مرة ثانية، وانتهت المقاومة. واحتل ريكاردوس نيقوسيا وكيرينيا حيث أسر ابنة ايزاك. وفي نهاية مايو استسلم ايزاك؛ على أن المصادر اختلفت حول مواقع لجوئه: حصن بوفافنتو، أو قنطرة، أو راس سانت

اندرياس. آنذاك صارت الجزيرة بكليتها في يدي ريكاردوس، على ما تتفق عليه المصادر، ولو لمرة، مسجلة تفصيلاً غريباً هو أن ايزاك كبّل بسلاسل من فضة لأن ريكاردوس كان قد وعد بأن لا يكبله بقيود من حديد.

وبعد شهر بالضبط من وصوله، غادر ريكاردوس قبرص، متوجهاً إلى فلسطين في الخامس من يونيو. وبعد أقل من ستة أسابيع من ذلك، استسلمت الحامية الإسلامية في عكا بعد أن صمدت للحصار نحو سنتين تقريباً. عند ذاك أصبحت القوات المسيحية قادرة على مد سيطرتها إلى مناطق أخرى في الأراضي المقدسة. غير أن صلاح الدين كان أبعد من أن يكون قد هزم. وأخيراً، تم الاتفاق في سبتمبر عام 1192 على هدنة تدوم ثلاث سنوات وثمانية أشهر. وبموجبها كان للمسيحيين أن يسيطروا على المنطقة الساحلية من صور في الشمال حتى يافا في الجنوب، إنما بدون القدس أو المناطق الداخلية الأخرى. لقد قام ريكاردوس بدور قيادي في حملات عامي 1191 و1192؛ ثم كان رحيله إلى أوروبا في أكتوبر عام 1192 دليلاً على انتهاء الحملة الصليبية.

كانت الأشهر الستة عشر التي نشط فيها ريكاردوس في الأراضي المقدسة دقيقة بالنسبة إلى قبرص. وما أن تم فتح الجزيرة، حتى غادرها في عهدة اثنين من رجاله، هما ريتشارد كمفيل، وروبرت ثورنام، وآمري الحصون المعينين من قبله. على أن الطبيعة الدقيقة لترتيباته لم تكن واضحة. هنالك كاتب يؤكد أن ريكاردوس عيّن شخصاً يونانياً بصفة حاكم وضم إليه روبرت ثورنام لرعاية المصالح الملكية، ولإخضاع قبرص لحكومته الصورية الجديدة. ولئن تمكن روبرت ثورنام من إخماد

العصيان بقيادة راهب قيل عنه أنه أحد أقارب ايزاك، فإن ترتيبات الملك لم تدم طويلاً. وخلال أسابيع قليلة بعد رحيله، وقبل سقوط عكا، باع ريكاردوس حقوقاً في الجزيرة إلى الهيكليين (الداوية). وبذلك بدأت فترة سيطرة الداوية التي دامت حتى أبريل عام 1192. كانت غير محبوبة، متسمة بالجشع؛ ثم إن منظمة الداوية أرسلت عدداً غير كاف من القوات لإبقاء الناس تحت السيطرة. وفي الرابع من أبريل، اليوم السابق لأحد الفصح، حاول القبارصة في نيقوسيا أن يثوروا ويقضوا على الحامية ولكن قوة الداوية الصغيرة في البلدة نجحت في شن هجوم مفاجىء، وفتكت بعدد كبير من الثوار. ومع أن هذا الحدث بدا كأنه نصر، فإن رئيس الداوية، على ما هو واضح، قرر أن قبرص هي فوق ما تستطيع موارد مؤسسته أن تطيق، وسلّم الجزيرة إلى ريكاردوس. وللفور باعها ريكاردوس من جديد، إنما إلى غي لوزينيان، هذه المرة، بشروط مماثلة للشروط التي باعها إلى الداوية.

وكان بيع قبرص لغي لوزينيان إيذاناً ببداية النظام اللاتيني الذي قدّر له أن يستمر ثلاثة قرون. على أن إيجاد مثل هذا النظام لم يشكل جزءاً من برنامج ريكاردوس. إن الملك لم يكن معنياً إلا بحاجات الحملة المباشرة، لا بمستقبل الجزيرة على المدى البعيد. ومن المؤكد تقريباً أن هدفه الأول في فرض إنزال قواته عند ليماسول كان الثأر ـ انتقاماً لمعاملة ايزاك للصليبيين الذين تحطمت بهم السفينة، ولمحاولة القبض على جوأنا وبيرينغاريا. وهنالك من الرواة من زعم، بقصد إيجاد المبرر الإضافي للغزو، أن بغض ايزاك للاتين بلغ به حد التحالف مع صلاح الدين. مثل هذا الزعم لا أساس له من الصحة، على ما يرجح؛ ثم إنه لم يكن، له على ما يرجح؛ حتى لو صدّق آنذاك، أن يحدث أي فرق لمسار عمل

ريكاردوس. وفي أية حال لا بد لريكاردوس حين نزل في قبرص، أن يكون قد أدرك أهمية الجزيرة كقاعدة تموين. الحملة الناجحة لا بد لها من مقادير كبيرة من المؤونة والمال. وإذا كان قد تغلب على مصاعب كثيرة لجمع الاعتمادات الكافية قبل الانطلاق، فإن تأخره لمدة طويلة في صقلية، لا بد أنه استنفد قسماً كبيراً من موارده. وفي مفاوضاته مع ريكاردوس قدّم ايزاك كومنينوس النقود، والمؤونة، والرجال. وكان الملك قد سبق له أن كسب الغنائم الكثيرة، ثم تمكن، في وقت لاحق، من الاستيلاء على خزينة إيزاك في كيرينيا. وهنا تتفق الروايات على أنه، حين غادر قبرص، أخذ معه قدراً ضخماً من المنهوبات ذات القيمة.

ولم تكن سياسة ريكاردوس، في أية حال، تهدف إلى تدمير المؤسسات القائمة، بل إلى استغلالها؛ وحتى انهيار المفاوضات ظلّ على استعداد لترك ايزاك في السلطة؛ ولعله كان عند رحيله، يحاول إنشاء حكومة يونانية تحت الإشراف الإنكليزي. وقد ذكر روجر هودن انه منح ميثاقاً يبقي بموجبه القوانين كما كانت في عهد الأمبراطور مانويل كومنينوس لقاء ضريبة تفرض على نصف الممتلكات التي يمتلكها قبارصة. وفي البداية، كان على ضباط ريكاردوس في قبرص أن يقدموا المؤونة من الجزيرة إلى الصليبيين الإنكليز في فلسطين؛ ولكن الملك سرعان ما غيّر سياسته، ولاعتباره قبرص ملكاً مطروحاً في السوق، فقد باعها للداوية لقاء 100000 بيزنت شرقي، دفع منها 40000 على الفور، على أن يدفع المتبقي من دخل المنظمة في الجباية التالية. وحين أعاد الداوية قبرص في أبريل، عام 1192، أمكن لريكاردوس، على ما يبدو، أن يحقق كسباً جديداً من فتحه. وبناء على ما جاء في المصدر

الأوثق، رفض ريكاردوس أن يعيد للداوية دفعتهم الأولى؛ وببيع الجزيرة لغي لوزينيان، قبض مبلغ 60000 بيزنت الإضافي. على أن غي لم يدفع مبلغ الـ 40000 بيزنت الإضافي الذي ظل مديناً به للملك. وعلى رغم ذلك، يكون ريكاردوس قد حقق من قبرص استفادة جيدة، إذ لا بد أن الجزيرة قد تحملت نسبة كبيرة من نفقات حربه في فلسطين.

لم يصمد ايزاك لريكاردوس شهراً واحداً. ولا مجال للشك في أن القوات الانكليزية كانت أكثر تفوقاً من الناحية التكتيكية. كان يمكن لايزاك أن ينتفع بمعرفة طبيعة الأرض، لكنه، على ما هو واضح، لم يكن يملك أية مواقع محصنة مزودة بالجنود وبالمؤن للصمود لأي حصار؛ وهكذا فإنه لم تنشأ إمكانية القيام بحملة دفاعية بأمل أن يتراجع ريكاردوس ويتوجه إلى فلسطين. ومن الواضح كذلك أن ايزاك لم يتمتع بدعم كامل من قبل رعيته. ولعل القوات الأرمنية في خدمته كانت مصدر احتكاك. والناسك اليوناني المعاصر يشجبه بصراحة باعتباره طاغية. وهنالك نص إنكليزي جاء فيه أن ايزاك لم يشر بعد أسره إلى أنه قد يفتدى؛ ومما له مغزاه ولا ريب أن عدداً من النبلاء اليونانيين عمدوا، في مرحلة باكرة بعد الغزو، إلى عقد اتفاق سلام خاص بهم مع الملك ريكاردوس. والظاهر أن العائلات النبيلة من القسطنطينية، وهي التي شكلت، على ما قيل، العنصر السائد في المجتمع القبرصي، أبت أن تمنح ايزاك المعونة اللازمة له لمقاومة الكارثة التي كانت تواجههم.

ثم ثبت أن الفتح دائم. وبعد الانتفاضة على لداوية في أبريل عام 1192، لم يعد يسمع أي شيء عن المتمردين اليونانيين طوال قرنين تقريباً. وقبل عام 1570 ـ 1571، لم يقم أي جيش أجنبي بفتح الجزيرة

بكمالها، مع أن قبرص عانت معاناة شديدة على أيدي الجنويين في السبعينات من القرن الرابع عشر، وعلى أيدي المماليك في العشرينات من القرن الخامس عشر. وعلى أية حال، إن النصر الذي حققه ريكاردوس ترك على أثره عدداً من المطالبين بالسلطة. الملك الفرنسي فيليب أكّد حقه في نصف الجزيرة، على أساس أنه اتفق وريكاردوس على تقاسم أية فتوحات يحققانها أثناء الحملة. غير أن هذا الادعاء رفض بحزم. كذلك قامت عائلة ايزاك بالتأكيد على طلبها. أما إيزاك نفسه فلم يقم، على ما يبدو، بأية محاولة لاستعادة قبرص. وقد أبقي سجيناً في حصن الأسبتارية في المرقب في شمالي سوريا حتى إطلاق سراحه في عام 1193 أو عام 1194، ثم توفي نحو عام 1195، مسموماً، على ما يعتقد، وهو يحاول إثارة سلطان قونية بوجه بيزنطية. وأخذت ابنته إلى أوروبا بواسطة جوأنا وبيرينغاريا، ثم تزوجت في النهاية من تييري، وهو ابن غير شرعي لفيليب، كونت فلاندرز. وبعد عقدٍ من فتح قبرص على يدي ريكاردوس، انضم تييري إلى الحملة الصليبية الرابعة، ثم التحق بإحدى المجموعات التي تركت الجيش الأساسي للسفر إلى سوريا. وفي عام 1203، وصل قبرص في طريقه إلى الشرق. وتقدم من حاكم الجزيرة آنذاك، أيمري لوزينيان، وطالب بالجزيرة كحق لزوجته. فقيل له باختصار وجفاف بأن يرحل. وهنالك مطالب آخر بقبرص زعم أن له الحق فيها عبر ايزاك هو الدوق ليوبولد السادس النمساوي. أثناء الحملة الصليبية الثالثة، كان ليوبولد الخامس، والد ليوبولد قد اختصم مع الملك ريكاردوس، ثم جعل الملك أسيراً لديه عندما عاد إلى الغرب في وقت متأخر من عام 1192. ليوبولد الخامس هو ابن عم ايزاك؛ ثم إن معاملة ريكاردوس لايزاك كانت بين التهم التي وجهت إليه. على أننا

لا نعلم بمطالبة ليوبولد السادس التي لا بد أنه قام بها أثناء مساهمته بالحملة الصليبية الخامسة في عام 1217 ـ 1219، إلا من ملحوظة لاحقة نسبت إلى جون إيبيلين، حاكم بيروت. ويقال إن جون ذكّر هنري الأول الشاب، ملك قبرص، أنه هو وعائلته أحبطا محاولة الدوق لحرمانه من إرثه حين كان هنري لا يزال دون السن.

وليس غير طبيعي أن تكون السلطات في القسطنطينية أرادت استعادة قبرص. كان ايزاك الثاني أنجيلوس (1185 ـ 1195) قد سبق له أن وجّه أسطولاً لهذه الغاية في عام 1187، غير أنه هزم على يدي مرغريتون، حليف ايزاك كومنينوس. ثم إن السفارة البيزنطية الموجهة إلى قبرص سنة 1192 بلغت نهايتها قبل الأوان حين استولى القراصنة في بحر إيجه على السفينة التي كانت تقل أعضاء السفارة؛ وفي السنة نفسها رفض صلاح الدين اقتراحاً بأن يشن هو والبيزنطيون حملة مشتركة على الجزيرة . غير أن الحكام اللاتين ظلوا على رغم ذلك يتخوفون من هجوم بيزنطي. ثم إن هذا الخطر هو الذي دفع أيمري لوزينيان، على ما قيل في وقت لاحق، إلى السعي في عام 1195 للتحالف مع الأمبراطور الغربي هنري السادس، وجعل قبرص مملكة تحت سيادته. وفي أوائل عام 1199، كان سفراء أيمري في بلاط الحبر الأعظم يعربون عن مخاوفهم من انتقام بيزنظي منهم. وفي عام 1203 استدار الأمبراطور ألكسيوس الثالث (1195 ـ 1203) إلى الحبر الأعظم إنوسنت الثالث، وسعى إلى حمله على استخدام التهديد بالحرمان لإرغام أيمري على إعادة الجزيرة، غير أن إنوسنت رفض أن يستجيب إلى طلبه. ثم إن الحملة الصليبية الرابعة بما أنزلته من دمار بالأمبراطورية المنهوكة، وضعت حداً لاحتمال وقوع غزو بيزنظي. إلا أن الحبر الأعظم أورบان الرابع حذّر الحكومة في

قبرص، فور استعادة القسطنطينية من قبل اليونان في عام 1261، من أن البيزنطيين يخططون بالاشتراك مع الجنويين لشن هجوم، ويتوقعون من سكان الجزيرة اليونانيين أن ينضموا إليهم للتخلص من نير اللاتين. ثم تبيَّن أن مخاوف الحبر الأعظم لم تكن تستند إلى أساس.

وبالنسبة إلى ريكاردوس، كانت قبرص له بحق الفتح، وله أن يتصرف بها كما يشاء. وإذا كان الملوك الإنكليز لم يقوموا بأية محاولة جادة لتأكيد سيادتهم على الجزيرة، فإن الفكرة بأن للإنكليز حقوقاً متبقية من الماضي كانت تظهر في الأدبيات التاريخية بين حين وآخر. روجر هودن أعلن أن ريتشارد منح قبرص لغي ليحكمها مدى حياته فقط، ملمّحاً بذلك، على ما يرجح، إلى ضرورة استعادتها بعد وفاته؛ وهي فكرة التقطها، وبالغ فيها في القرن الثالث عشر مؤلف النص المعروف بـ The Crusade and Death of Richard I. وفي أوائل القرن الرابع عشر، لحظ الراوي ولتر أوف غيزبورو أن نبلاء قبرص رووا للورد ادوارْد حين كان في الشرق في عام 1271 «أنهم ملزمون بأوامره لأن أسلافه حكموا جزيرتهم من قبل، وأن عليهم أن يكونوا أمناء مخلصين لملوك إنكلترا». وهنالك كاتب في القرن الرابع عشر، هو الذي جمع «رواية مو» اعتقد أن قبرص كانت، منذ الفتح، تحكم باعتبارها تابعة للتاج البريطاني وأن الملوك القبارصة ظلوا يقدمون الطاعة إلى ملوك إنكلترا حتى زمنه. وفي المصدر الفرنسي Chronique des quatres premiers valois، أن الملك ادوارد الثالث أخبر بطرس الأول القبرصي، في لقائهما عام 1363 أن قبرص ينبغي لها، بحال نجاح بطرس في استعادة القدس، أن تعاد إلى الإنكليز. وفي القرن الخامس عشر، بدأت تظهر الفكرة بأن ريكاردوس قلب الأسد حصل لنفسه على

تاج القدس حين أعطى قبرص لغي؛ ثم إن هذه الفكرة، بالإضافة إلى الاعتقاد بأن الجزيرة يجب أن تخص الإنكليز حقاً، كانت السائدة في القرن السادس عشر. والحقيقة إنه لم تكن لريكاردوس أية مطامع بتاج القدس. إن حاكم قبرص اللاتيني الوحيد الذي قدم الولاء لملك إنكلترا هو غي لوزينيان. غير أن ولاء غي كان محض عمل شخصي خاص، وقع في أية حال قبل أشهر من ظهور احتمال منحه الجزيرة. إن أية حقوق يمكن لريكاردوس أن يمتلكها بالنسبة إلى قبرص بعد عام 1192 مردّها إلى عدم وجود فريق آخر مطالب وفي أية حال، إن هذه الحكايات تدل أن الأجيال التالية في أوروبا الغربية أبقت الذكرى حية بأن قبرص كانت ذات مرة فتحاً إنكليزياً.

2

الاستيطان

من المستبعد أن تكون قبرص قد تغيرت من الناحية الطبيعية أي تغير يذكر منذ أن حصل غي لوزينيان على الجزيرة في ربيع عام 1192. في وسطها، حيث سفوح التلال تمتد نحو السواحل الجنوبية والغربية، ترتفع جبال ترودوس، وأعلى ذروة فيها تتجاوز 6000 قدم فوق سطح البحر. وعلى الساحل الشمالي، امتداداً إلى شبه جزيرة كرباسيا، وهي النتوء البري الذي يشير إلى الشمال الشرقي بإتجاه خليج اسكندرون، تمتد سلسلة أخرى من الجبال، هي سلسلة كيرينيا. وبين هاتين المنطقتين الجبليتين سهل يحتل قسماً كبيراً مما تبقى من مساحة الجزيرة البالغة 3500 ميل مربع، يعرف القسم الشرقي منه باسم ميسا أوريا. ومن ناحية استراتجية إن سلسلة كيرينيا كانت باستمرار أكثر أهمية من جبال ترودوس. المعروف أنها أدنى ارتفاعاً؛ إن أعلى ذراها تكاد لا تتجاوز 3500 قدم، إلا أن حُرفها أكثر بروزاً؛ انه يفصل العاصمة نيقوسيا عن أقرب نقطة على الساحل، أي ميناء وحصن كيرينيا، على مسافة 16 ميلاً إلى الشمال. وفي زمن الفتح اللاتيني كانت ثلاث من قمم جبال كيرينيا متوجة بحصون هي من الشرق إلى الغرب: قنطرة بوفافنتو وسانت

جيزليبرت مونس إن الجزيرة كانت «أرضاً غنية بكل الأشياء». وبالنسبة إلى ولبراند أولدنبرغ، المعاصر له تقريباً، إذ زار الجزيرة عام 1212، كانت قبرص «جزيرة في منتهى الخصب، فيها أفضل الخمور». والجراد الذي كان لعنة متواصلة في القرون الأخيرة، لا يذكر قبل عام 1351. والأكثرية الساحقة من سكان الجزيرة كانت منهمكة في الزراعة، أو في زراعة الكرمة؛ آنذاك، كما في الوقت الحاضر، كانت غالبية حقول الكروم قائمة على المنحدرات الجنوبية من ترودوس؛ على أنه تنقصنا الإثباتات على مدى استثمار ترسبات الخامات المعدنية أثناء القرنين الأولين من عهد لوزينيان، غير أن الأحواض الطبيعية لاستخراج الملح في لارنكا وليماسول كانت حكراً على الملك، ومن المؤكد أنها كانت ذات أهمية كبيرة.

لا ريب في أن غالبية سكان الجزيرة كانت عندما اشتراها غي تعيش في الأرياف. والانطباع الغالب عن قبرص في القرن الثاني عشر هو أنها مجتمع ريفي فيه عدد قليل من مراكز المدن التي لم يكن لأي منها أي سور. ثم تطورت المدن في ظل اللاتين، إلا أنه حتى في القرن السادس عشر، حين بدأت المعطيات الإحصائية تتوافر، كان دون خمس مجموع السكان، على ما يبدو، يعيشون فيها. وليست لدينا أية وسائل وافية لحساب عدد السكان عشية الفتح؛ غير أنه بلغ 60 ـ 75 ألفاً في القرنين الثامن والتاسع، فيما تشير الدلائل في القرن السادس عشر إلى نمو متسارع بين 1500 و1700 من نحو 120000 إلى ما دون 200000. إن الاتجاه التصاعدي للسكان بين القرنين التاسع والسادس عشر، انعكس هبوطاً في بقية أنحاء أوروبا والشرق الأوسط معاً، بفعل الموت الأسود عام 1348، والأوبئة التالية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛

والمحتمل أن مجموع السكان لم يرق إلى ما كان عليه قبل الطاعون إلا عشية الفتح العثماني؛ أو لعله لم يبلغ ذلك حينذاك. وبالنسبة إلى عام 1191، فإن تقدير السكان بما قد يتجاوز ماية ألف ليس بعيداً عن الحقيقة.

وكان الاتصال بالعالم الخارجي معرضاً لأن يكون بطيئاً وغير منتظم. لقد ذكر العالم الجغرافي العربي، المقدسي، في القرن العاشر، أن اجتياز البحر من سوريا إلى قبرص كان يستغرق 24 ساعة. وفي القرن الثالث عشر قضى لويس التاسع، ملك فرنسا، أربعة أيام للإبحار من ليماسول إلى ميناء دمياط في مصر، إذ إنه كان قد أخر الإقلاع من الميناء يومين بسبب الرياح المعاكسة. ثم إن الوقت اللازم للانتقال من الغرب أو إليه كان يختلف أكثر من ذلك كثيراً. ففي الصيف يمكن للرحلة أن تستغرق وقتاً قصيراً ينخفض حتى ثلاثة أسابيع أو أربعة. وفي عام 1191 أخذ الملك ريكاردوس 27 يوماً، بما في ذلك تأخير 13 يوماً في رودس، للانتقال من مسّينا إلى ليماسول؛ وفي عام 1228 أخذ فريدريك الثاني 24 يوماً للإبحار من برنديزي إلى ليماسول، فيما أخذ لويس التاسع، عام 1248، نفس هذه المدة للوصول من أيغ مورت. أما أحوال الشتاء فيمكن لها أن تجعل الرحلة أطول بكثير. في 16 أكتوبر عام 1309 انطلق المبعوث البابوي ريموند بيس من مرسيليا قاصداً قبرص. وبعد 78 يوماً من مصارعة الطقس وصل رودوس في 3 يناير 1310؛ هنا أصيب بالمرض وعجز عن متابعة رحلته طيلة شهرين، ولم يصل فمغوستا حتى السابع من مارس. فهو استطاع الوصول، أما السفينة التي انطلقت في كانون الأول عام 1308، حاملة سفارة من قبرص إلى الإدارة البابوية فتحطمت في خوص.

ولئن كانت الاتصالات تتأخر، فإن كون قبرص جزيرة كان بمثابة منفعة رئيسية للسكان. البحر دفاع طبيعي، وقى سكان الجزيرة من خراب الحرب. والهجمات الوحيدة المدوّنة التي شنتها السفن الإسلامية قبل القرن الخامس عشر جرت عام 1271 حين حطّم أسطول للمماليك على الساحل بجوار ليماسول قبل أن يتمكن من إنزال أي أذى؛ ثم في عام 1363 حين دفعت الغزوات التركية القبارصة إلى القيام بعمل ثأري حازم. أما من ناحية أخرى فإن السواحل كانت معرضة للقراصنة من اليونان، وقد خطفوا في التسعينات من القرن الثاني عشر زوجة أيمري لوزينيان والأطفال؛ أو للقراصنة الذين قيل إنهم من رودس ومونمفازيا، وقد أسروا عام 1302 كونت يافا وأفراد عائلته فيما كانوا يعيشون في أملاكه في أبيسكوبي. وباستثناء حوادث كهذه، ثم أعمال النهب الجنوية الأشد خطورة في عام 1310، فإن قبرص عرفت عهداً ملحوظاً خلا من الهجمات. وبعد عمليات الفتح في البداية، ثم التهدئة عام 1191 ـ 1192 كان القتال الخطير الذي وقع في الجزيرة قبل غزو جنوى لها في سنة 1373، هو الذي وقع أثناء الحرب الأهلية في 1229 ـ 1233.

وللتعرف إلى الاستيطان اللاتيني في قبرص، علينا أن نعتمد بالدرجة الأولى على تقاليد متعددة في القرن الثالث عشر. صحيح أنه ليس بين هذه الروايات ما هو موثوق كلياً، لكنها تقدم لنا ما كان الناس على استعداد لتصديقه بعد جيل أو نحوه من الاستيطان، أو ما كان الرواة، على الأقل، يريدون من الناس أن يصدقوه. إن أكمل هذه الروايات، وأفضلها، على ما يرجح، جدير بأن ننقله هنا مطولاً:

«بعد أن دفع الملك غي مبلغ 60000 بيزنت إلى ملك إنكلترا، توجه

إلى قبرص، وأخذ معه بعض الفرسان الذين جردوا من إرثهم في المملكة (القدس). وما أن تملك الجزيرة بصورة كاملة، حتى أرسل الرسل إلى صلاح الدين يسأله رأيه في كيفية تمكنه من متابعة حكم جزيرة قبرص. ورد صلاح الدين بأنه لا يكنّ للملك غي حباً كبيراً، إلاّ أنه، وقد طلب النصح منه، سيقدمه له على أفضل ما يعرفه... ولذلك قال للرسل: «إنني أنصح الملك غي، إذا شاء للجزيرة أن تكون آمنة، أن يوزعها كلها». عند ذاك غادر الرسل وعادوا إلى قبرص، ورووا الجواب للملك الذي تابع نصيحة صلاح الدين بدقة».

«والآن سأروي لكم ما فعله الملك غي حين تملك جزيرة قبرص تملكاً تاماً. وجّه الرسل إلى أرمينيا، إلى إنطاكية، إلى عكّا، وإلى شتى أنحاء البلاد، ليقولوا إنه مستعد للبذل بسخاء لكل من يود أن يأتي ويسكن قبرص بحيث يستطيع العيش فيها. وسمع الملوك وسكان المدن الذين كان المسلمون قد جردوهم من ممتلكاتهم بكلام الملك غي، فانطلقوا قادمين إليه؛ كذلك جاءه النساء والأيتام بأعداد كبيرة ممن كان أزواجهن وآباؤهم قد قضوا أو فقدوا في سوريا. ووزع الاقطاعات الغنية على اليونانيين والفرسان الذين جاء بهم معه، وعلى صانعي الأحذية، والبنائين، والكتبة العرب ليصبحوا فرساناً ولوردات في جزيرة قبرص. كذلك قام عند وصولهم بتزويجهم بنساء مناسبات وفق أوضاعهم... ووزع ما يكفي من الأرض لمن يأخذونها بحيث أنه ملّك الاقطاعات لثلاثماية فارس و200 رقيب خيال؛ برتبة رقيب ولن ننسى أن نذكر هنا أهل المدن الذين استقروا في المدن وقد منحهم أراضي واسعة ومخصصات كبيرة. وحين أنجز هذه التوزيعات لم يبق له ما يكفيه لإعالة عشرين فارساً».

والمرجح أن واضع هذا النص هو مرافق لباليان إيبيلين أحد خصوم غي لوزينيان البارزين بين نبلاء مملكة القدس. لقد أثبت في أمكنة أخرى من تاريخه أنه خصم دائم لغي؛ هذه الخصومة واضحة هنا أيضاً. إن كاتب هذا النص هو من الأوائل في الأوساط المسيحية ممن صوروا صلاح الدين بأنه إنسان ذو أمانة شخصية رفيعة؛ وهو في هذا المقطع يقدر صلاح الدين باعتباره واضع سياسة غي؛ إنه يثني عليه على حساب غي. إن التأكيد بأن غي أحاط نفسه بحرفيين ممن رفعهم إلى مرتبة النبالة دليل أشد وضوحاً على تشويهه لسمعة غي؛ ثم إنه يسجل اشمئزازه من الإهانة للمكانة الارستقراطية بتبجحه التقي. على أنه ليس لتحويل اليونانيين والوضعاء إلى لوردات كبار ولا لنصيحة صلاح الدين ما يؤكدهما بإثباتات مستقلة؛ إن هذه العناصر في الرواية يمكن لنا إهمالها باعتبارها ليست أكثر من دلائل أخرى على تحيز الكاتب.

وبتناول هذا النص بذاته على حدة، نرى أنه إقرار من حاقد على أن الاستيطان في قبرص كان ناجحاً، وبأن غي تصرف تصرفاً حكيماً بتجنيده ما أمكنه من المستوطنين. إن تجربة الداوية أثناء فترة حكمهم القصيرة دلّت أن العامية الصغيرة غير كافية لضبط السكان. المطلوب، إذا كان له أن يحتفظ بقبرص بصورة دائمة، عدد كبير جداً من الرجال من ذوي المصلحة الأكيدة في الحفاظ على النظام الجديد. غير أن العددين المذكورين: 300 فارس و200 خيال برتبة رقيب مبالغ فيها على ما يرجح. قبل عام 1187 كان مجموع النبلاء الإقطاعيين تحت تصرف ملوك القدس لا يتجاوز، على ما يبدو، 675 فارساً، وبذلك يبدو أنه من غير المحتمل، رغم ضياع مساحات واسعة من الأراضي في سوريا وفلسطين، أن يجد غي مثل هذا العدد من المجردين من ممتلكاتهم، ليأتوا

معه إلى قبرص. إن عدم قابلية تصديق مثل هذه الأعداد تزداد وضوحاً حين ننظر إليها في ضوء رواية أخرى تتعلق بالاستيطان؛ وقد جاء فيها أن الفرسان تلقوا إقطاعات بقيمة 400 بيزنت أبيض في السنة وأن «الترك» (كلمة مستخدمة هنا، كما هو واضح، بدلاً من «الرقباء الخيالة») تلقوا إقطاعات بقيمة 300 بيزنت. وعلى افتراض أن هذه الإحصاءات هي ذات أساس جيد، فإن ذلك يعني، أن الإقطاعات القبرصية كانت من حيث قيمتها، أقل إلى حد كبير، من الإقطاعات السورية. وإذا كان الأمر كذلك فإن قبرص لن توفر الجاذب لأناس يتوقعون أن يكون لهم بعض النجاح في تأمين معيشتهم في سوريا. على أن الموجز العام، مهما كانت هذه الروايات الخاصة غير مقنعة، واضح إلى حد كاف وهو أنه لم تجر أية محاولة للاستيطان في قبرص قبل أن يتسلمها غي في أوائل عام 1192، وأن المستوطنين الأوائل، كغي نفسه، جاؤوا من سوريا؛ لقد كانوا من رتب الرجال والنساء ممن جردوا من ممتلكاتهم من قبل المسلمين.

القليلون ممن رافقوا غي إلى قبرص بعد شرائه الجزيرة يمكن تحديد أسمائهم؛ أما أسماء بعض الفرسان الأكثر بروزاً في العقد الأول من عهد لوزينيان فيمكن أن تعرف من لوائح الأسماء في العدد القليل من العقود الباقية. كثيرون منهم كانوا زملاء لغي قبل حصوله على الجزيرة. أيمري شقيقه، وهمفري تورون، وهيوغ مارتين، ورينيه الجبيلي، والأخوان ولتر وأليلم ليه بيل، أيدوه أثناء حصار عكا (1189 ـ 1191) وبعده مباشرة؛ على أنه ينبغي أن نشير هنا إلى أن عدداً من مؤيديه الآخرين في تلك السنوات آثروا أن يبقوا في سوريا. وهنالك مستوطنون آخرون أولون، من أفراد أسرتي غي أو إيمري، كانوا، في

عدد من الحالات كآل لوزينيان أنفسهم، يتحدرون من بواتو في الأصل. على أن لائحة الأفراد المعروفين هنا أيضاً قصيرة: هيوغ مارتين، فولك ييفر، لورنس بليسي، ماسّيه غوريل، آدم الانطاكي، غي ليه بيتسي، ورينالد بارليه. وكان بعض المستوطنين ينتمون إلى عائلات استقرت في الشرق قبل فتوح صلاح الدين؛ على أن همفري تورون فقط، كان، إلى جانب الشقيقين لوزينيان، شخصية رئيسية في مملكة القدس. وكان فيليب، وربما بولدوين بيشان الابنين الأصغرين لغريمونت لورد بيشان: وكان ولتر ليه بل قد تسلم إقطاعه في عكا أو بجوارها، فيما كانت لرينالد سواسون إقطاعة في نابلس. والظاهر إن إلياس روبور كان تابعاً للوردِ طبريا، وأن رينيه الجبيلي كان، على ما يحتمل، متحدراً من رجل بهذا الاسم، أو لعله هو نفسه، وقد كان في عام 1160 أو 1161 تابعاً للورد قيسارية؛ وربما كان أودو مير قد جاء من انطاكية؛ وربما كان بولدوين هونستياريوس وبولدوين نيفيلييه نسيبين لآخرين يحملون اسم الشهرة نفسه في المملكة اللاتينية في فترات أخرى في القرن الثاني عشر، فيما يمكن أن يكون وليم لابوم وشقيقه رولاند متحدرين من فارس طرابلسي كان يصدق على صحة الوثائق في وقت سابق، عام 1139.

مثل هذا التحليل يقطع شوطاً في تثبيت روايات الاستيطان. صحيح أن الكثيرين من المستوطنين الأوائل الذين نعرفهم بأسمائهم كانوا على صلة بآل لوزينيان قبل عام 1192، على أنه لا سبيل للتمييز بين الفرسان الذين صحبوا غي إلى قبرص كأعضاء في حاشيته وبين الذين جاؤوا إلى الجزيرة أملاً بالحصول على إقطاعات بعد توجيه النداء لدعوة المزيد من الرجال. إن الإشارات العامية بخصوص أصول المستوطنين تجد لها ما

يؤيدها. الفرسان الذين كانوا، على ما يظهر، على صلات بأنطاكية وطرابلس ممثلون هنا كالفرسان الذين جاؤوا من القدس. وبما أن طورون، ونابلس، وبيسان، وطبريا هي من المواقع التي بقيت في أيدي المسلمين بعد الحملة الصليبية الثالثة، فلا بد أنهم كانوا، في بعض الحالات على الأقل، قد جرّدوا من ممتلكاتهم بواسطة صلاح الدين. مثل هذا النمط له ما يوازيه في المجال الكنسي. أول رئيس أساقفة لاتيني في نيقوسيا، وأول أسقف في بافوس، وهما الأبرشيتان اللتان أنشئتا عام 1196، كانا قبل ذلك رئيس الشمامسة في اللد ورئيس الشمامسة في اللاذقية.

في القرن الثالث عشر، وبعده، راح الناس يهاجرون إلى قبرص مباشرة من أوروبا الغربية. ولا شك أن هذه العملية بدأت بعد عام 1192، على الفور تقريباً؛ على أن الاستيطان الأوروبي في الجزيرة كان، في مراحله الأولى، يتم من قبل مستوطنين من مملكة القدس والممالك اللاتينية الأخرى في سوريا. إن هؤلاء هم الذين حددوا لنظام قبرص طابعه. وفي حالات عديدة فإن الأفكار والمؤسسات التي جلبوها معهم كانت غربية في نشأتها، حتى لو انها كانت قد تعدلت بفعل إقامتها في بيئة شرقية. وهكذا، على سبيل المثال، إن عادات الإقطاع في القدس، وهي غربية في الأساس من حيث المفهوم، وتكيفت بالصراعات الشاقة في أوائل القرن الثاني عشر مع الجيران المسلمين، نقلت إلى قبرص بتغييرات ثانوية فقط. ومع أنه كانت للمستوطنين آراؤهم الخاصة بخصوص التنظيم القانوني، والديني، والإداري، والاقتصادي، فإنهم واجهوا نظاماً قائماً من البنى السياسية والاجتماعية، هو تراث بيزنطية. وكانت النتيجة تسوية توفيقية.

هنالك أصحاب إقطاعات أخذوا بها أو اقتبسوا، ببساطة، ما وجدوه، أما في إقطاعات أخرى، لا سيما تلك التي تأثرت بالفتح أبلغ تأثير، فأدخلوا آراءهم المؤسساتية الخاصة بهم. وهكذا فإن استغلال الأرض والفلاحين وتنظيم الضرائب التجارية ظلاّ، على ما يبدو، كما في السابق إلى حد كبير. وبالنسبة إلى النقد، فإن النقد البيزنطي، من ذهب مخفض القيمة، معروف في قبرص بالبيزنت الأبيض، كان الوحدة الرئيسية عند الفتح، لكن أسياد الجزيرة أصدروا منذ عهد غي لوزينيان حتى السنوات الأخيرة في القرن الثالث عشر أشكالاً خاصة بهم تقليداً لهذه العملة. أما بخصوص قضية ملكية الأرض، وفي التنظيم العسكري والكنسي، وفي البنية الاجتماعية للطبقة الحاكمة، فإن الفتح والاستيطان اللاتينيين أدخلا تغييرات بعيدة المدى.

لقد كان فتح ريكاردوس لقبرص عميقاً، شاملاً. وقد استطاع ريكاردوس والداوية معاً تحطيم إرادة الناس على المقاومة. والمعروف أن استيطان غي للجزيرة لم يواجه معارضة داخلية. أما مصير الملاكين البيزنطيين السابقين فغير واضح أبداً. وبناء على ما قاله الناسك اليوناني، نيوفيتوس، فإن كثيرين منهم فروا إلى القسطنطينية. ولعل هنالك آخرين ظلوا في قبرص في ظروف شاقة. هل اتبع آل لوزينيان سياسة مصادرة منتظمة؟ ذلك غير أكيد، ولو أن إستين لوزينيان، على ما هنالك من قلة ثقة بكتابته، يقول إنهم فعلوا ذلك. ولا إثبات على أن أفراداً من طبقة الملاكين اليونانيين، الأراخنة، واصلوا العيش في ظل النظام الجديد. وإلى أي حد كان اختفاؤهم بسبب فرارهم، أو الموت، أو انتزاع أملاكهم، أمر يبقى عرضة للتساؤل؛ على أن نهايتهم لا بد أن تعزى للوهلة الأولى، إلى سرعة الفتح وفعاليته. ففي كريت، والمورة، اللتين

فتحتا بعد نهب القسطنطينية عام 1204، امتدت المقاومة، واضطر الحكام الغربيون الجدد إلى إدخال ملاكين يونانيين موجودين هناك في التراتبية الإقطاعية، ولو بمرتبة أدنى، على ما هو مسلّم به. أما في قبرص فلم يحدث ما يشبه ذلك.

وكان لعمق الفتح وشموله، بالإضافة إلى الأمن الذي ضمنه البحر، تأثير في الطريقة التي نظم بها آل لوزينيان بها أتباعهم الإقطاعيين. المقاطعجيون المفضلون لم يعطوا مدناً أو حصوناً محصنة لتكون بمثابة إقطاعات، لأنه لم تكن هنالك على ما يرجح، أية حاجة إلى ذلك؛ لا حدود يجب الدفاع عنها ولا شعب ثائر يجب كبح جماحه. هنا، مرة أخرى، نجد المقارنة بالنسبة إلى المورة ذات دلالة. إن أمراء آخيا الذين قضوا أربعين عاماً لإخضاع المناطق التي ادعوا أنها ملك لهم، كانوا ملزمين بمنح أتباعهم إقطاعات ذات حصون، وبإعطائهم امتيازات واسعة، بما في ذلك حق بناء تحصينات جديدة واللجوء إلى القوة في المناطق الخاضعة لهم. مثل هذه الامتيازات لم تكن تعرف في قبرص. هنا احتفظ آل لوزينيان بسلطة حصرية للدفاع، ووزعوا على أتباعهم إقطاعات لا أهمية استراتيجية لها، إذ كانت الغاية منها، ببساطة، هي تأمين المعيشة لهم وتمكينهم من القيام بالتزاماتهم العسكرية.

لقد قضى الفتح على الارستقراطية اليونانية العقارية، لكنه لم يقض على الكنيسة اليونانية. وبقدوم آل لوزينيان توقفت الأرثوذكسية الشرقية، رغم احتفاظها بدعم السكان المحليين الناطقين باليونانية، عن التمتع برعاية الطبقة الحاكمة وحمايتها. على أن هذا الافتراق بين الحاكمين والمحكومين في ولاءاتهم الدينية أوجد، على ما بدا، مشاكل

تجاوزت حقيقة حلول غير اليونانيين محل اليونانيين في موقع السلطة والثراء العقاري. إن إدخال تراتبية لاتينية، وإكليروس لاتيني، لخدمة إيمان الحكام الجدد، أثار الحقد؛ ثم إن جهود الإكليروس اللاتيني منذ العقد الثالث من القرن الثالث عشر لإخضاع الكنيسة اليونانية لسيطرتهم أوجدت مصدراً متواصلاً للاحتكاك. آنذاك كانت الكنيسة اليونانية في موقع ضعف، من الناحيتين السياسية والاقتصادية معاً؛ حقاً إن الكنيسة نجت واستمرت، لكن المجتمع الذي يشكل أغنى مناصريها والمحسنين إليها لم ينج ولم يستمر؛ والمصاعب التي نشأت عن وقف رعايتهم وسخائهم تزايدت بفقد بعض أملاكها وأوقافها، على الأقل، مما كانت تملكه آنذاك.

وكان غي لوزينيان والمستوطنون اللاتين الأوائل موفقين من حيث إن الغزو كان سريعاً حاداً، وبذلك لم يؤذ الاقتصاد. القتل والتخريب الوحشي لم يكونا خاصة يتميز بها نجاح ريكاردوس. الحقيقة أن الرواية الفرنجية السورية الرئيسية حرصت بصورة خاصة على ذكر الإجراءات التي اتخذها الملك الإنكليزي لتأمين سلامة حياة وأرواح سكان ليماسول.

وكان قيام الطبقة الجديدة من الملاكين العقاريين بما لها من ثقافتها الخاصة وتنظيمها الكنسي، أبرز نتيجة لفتح الجزيرة والاستيلاء عليها. وكانت أحداث أوائل العقد الأخير من القرن الثاني عشر أقل إثارة، لكنها كانت برغم ذلك ذات تأثيرات أكثر أهمية بخصوص الإدارة والتجارة والمجتمع المديني؛ وقد أدت إلى تغييرات هامة في دور قبرص في سياسة عالم شرقي البحر الأبيض المتوسط. لقد جاء غي لوزينيان

بالفرسان، وبأهل المدن، وبرجال الدين كمستوطنين من سوريا وفلسطين، لكن فترة حكمه لم تكن غير البداية فقط. وخلال القرن الثالث عشر ظلّ السيل المتواصل من الرجال والنساء من ذوي الصلات السابقة بالدول اللاتينية في اليابسة يتوافد إلى قبرص. ومع الرضوخ للقوة العسكرية الإسلامية المتفوقة راحت الجزيرة تمثل ملاذاً للناجين. وهنالك كذلك وافدون آخرون بمن فيهم المغامرون الفرسان، ورجال الدين، والتجار، كانوا يأتون من الغرب؛ ثم استطاعوا بالتالي أن يحولوا الطبقة الأساسية الحاكمة، الناطقة باللغة الفرنسية بصورة بارزة، إلى مجموعة أكثر تنوعاً وتشعباً. وفي القرن الخامس عشر كاد أن لا توجد في غربي أوروبا أية منطقة لا يتمثل شعبها بين المستوطنين اللاتين.

3

سلالة لوزينيان

يمكن للوردات لوزينيان أن يعودوا بصلتهم بالشرق اللاتيني إلى عام 1102 حين خاض هيوغ السادس، جد غي لوزينيان الأعلى، معركة الرملة. وفي عام 1163، بعد جيلين، جاء هيوغ الثامن، والد غي من مسقط رأسه بواتو إلى سوريا ليقع أسيراً في أيدي المسلمين في السنة التالية. ثم لم يستعد حريته بعد ذلك. وكان لهيوغ الثامن عدة أبناء، أكبرهم، واسمه هيوغ أيضاً، لم يعمر بعده طويلاً؛ إلا أن ثلاثة آخرين من أبنائه، جفري وإيمري، وغي عمّروا بعده وحققوا الشهرة بإنجازاتهم في الشرق. وكنبلاء من بواتو، كان لوردات لوزينيان موزعين أتباعاً لملوك انكلترا ابتداء من عام 1154، وهي صلة يمكن لها أن تساعد على تفسير الدعم الذي منحه الملك ريكاردوس إلى غي في الحملة الصليبية الثالثة. على أن هذه العائلة لم تكن، في القرن الثاني عشر، بارزة بولائها لآل بلانتاجينيت (ملوك إنكلترا)، إذ إن إيمري وجفري وغي، كانوا ثلاثتهم، متورطين في تمردات على الملك هنري الثاني، والد ريكاردوس: إيمري عام 1168 والآخران عام 1173. وكان إيمري هو الأول الذي توجه إلى الشرق، ولا بد أنه فعل ذلك بعد وقت

قصير من تمرده، إذ إنه في عام 1174 كان قد أصبح مقطعاً تابعاً لبولدوين الرابع الشاب. ووفقاً لرواية كانت شائعة في أواسط القرن الثالث عشر، فإنه بدأ سيرته بدفع من الملك أموري (1163 ـ 74) الذي قيل إنه افتداه من الأسر في دمشق. وفي عام 1180 كان إيمري لوزينيان هو الذي أقنع غي كي يتوجه إلى القدس.

وفي الفترة التي تمتد بين تسلُّم بولدوين الرابع العرش عام 1174 ومعركة حطين عام 1187، كانت القدس في وضع قلق بسبب التهديد الخارجي من صلاح الدين وللانقسامات بين النبلاء اللاتين. وسبب هذه الانقسامات وضع دستوري مستفحل، طال فيه الصراع في سبيل السلطة.

عند تسلم العرش، كان بولدوين الرابع لا يزال دون سن الرشد؛ كذلك كان مصاباً بالجذام، كان لا بد من وصي لفترة لا يعرف طولها، تجعله فيها تأثيرات المرض الموهنة أقل قدرة، بصورة تدريجية على أن يحكم. وأخيراً سيخلو العرش بعد وفاته من وريث محدد، إذ ليس له وريث مباشر من صلبه. كان الملك أموري، والد بولدوين قد تزوج مرتين. ولدى استلام العرش سنة 1163، كان قد طلق زوجته الأولى أغنس كورتيني، والدة بولدوين وابنته الكبرى سيبيلا. وكانت زوجته الثانية أميرة بيزنطية هي ماريا كومنينا؛ وحملت له ابنة أخرى اسمها إيزابيلا. وعمرت الزوجتان بعد الزوج؛ وكانتا، بالإضافة إلى ابنتيهما، محط أنظار المجموعات المعارضة وكان المقربون بصورة خاصة إلى أغنس هم: شقيقها جوسلين حامل لقب كونت الرها، ثم وكيل أمير القدس منذ عام 1176؛ ورينالد شاتييون أمير انطاكية سابقاً، ثم بالزواج، لورد

ما وراء الآردن، وايراقليوس (هرقل) بطريرك القدس منذ عام 1180، وجيرارد ريدفورت، رئيس الداوية منذ عام 1185. وبين الذين كانوا في الصف المقابل معادين لهم هنالك باليان إيبيلين، الزوج الثاني لماريا كومنينا، وشقيقه بولدوين والكونت ريموند الثالث الطرابلسي، زوج أسكيفا، بورس، سيدة طبريا.

وبعد وقت قصير من بدء حكم بولدوين القاصر استولى ريموند الطرابلسي على السلطة. وأثناء فترة قيامه بالوصاية تزوجت سيبيلا التي كانت تعتبر آنذاك وريثة ذات حق في العرش، من وليم مركيز مونتيفرّات؛ والظاهر أن هذا الزواج الذي كان من شأنه أن يؤدي إلى القبول بوليم ملكاً بناءً على حق زوجته، لاقى ترحيباً واسعاً، غير أنه بعد زواجه ببضعة أشهر فقط، لاقى حتفه في عام 1177.

في هذا الوقت كانت أغنس ومؤيدوها يمسكون بزمام السيطرة، هؤلاء هم الذين كان عليهم آنذاك أن يبحثوا عن زوج جديد لسيبيلا. ولم تكن المهمة سهلة أبداً. اتصلوا بدوق برغنديا، فأبدى تردداً. عند ذاك اقترح إيمري لوزينيان شقيقه غي الذي كان لا يزال في الغرب آنذاك. جاء به إلى القدس، وفي عيد الفصح عام 1180 تمّ زواج غي بسيبيلا. وفي الوقت نفسه تقريباً عيّن إيمري كبير المسؤولين عن الأمن في المملكة.

هذه السرعة في بروز الأخوة لوزينيان أسفر عنها تعميق الانقسامات. الظاهر أن موافقة بولدوين الرابع على حصول الزواج كانت تستهدف منع ريموند من تعيين الشخص الذي يمكن لسيبيلا أن تتزوج منه أكبر منها دليلاً على أن غي كان يعتبر المرشح الأفضل. ويقال

أن بولدوين إيبيلين كان يطمح إلى أن تكون سيبيلا زوجة له. ومن الواضح أن غي باعتباره تحت رعاية فريق، أثار حفيظة الفريق الآخر. ثم ان ملاحظة وليم الصوري بأنه كان باستطاعة الملك بولدوين أن يجد إنساناً آخر أعظم مكانة، وأكثر حكمة، وثراء من غي لتزويجه بشقيقته تشير إلى أسباب أخرى لعدم الرضى على هذه العملية.

آل لوزينيان عائلة ذات نفوذ في بواتو، ولكن غي، وهو الابن الأصغر، يفتقر إلى الاحتياطي الذي يمكن لشخصية قوية أن تأتي به لتعزيز الشرق اللاتيني بوجه صلاح الدين؛ وهو كذلك تنقصه تلك الشهرة التي يمكن لها أن تجذب الرجال من الغرب للخدمة إلى جانبه في الميدان. هو ليس بديلاً لمركيز مونتيفرّات ولا لدوق برغنديا.

في عام 1183 اضطر الجذام بولدوين أن يتنازل عن سيطرته على الحكومة. ورغم هواجس خصوم غي الذين خافوا على المملكة من عواقب افتقاره إلى الخبرة، وتنبهوا إلى انكسافهم أمام أغنس ومؤيديها، فقد عين غي معاوناً للملك. غير أن غي وبولدوين اختصما خلال أشهر قليلة؛ والواقع أن غي فقد احترامه بصورة جدية بسبب إدارته لحملة بوجه صلاح الدين. وكان تيار الرأي العام شديد القوة بحيث أن بولدوين استطاع أن يعزله وأن يحاول أن يمنعه من أن يرث العرش من بعده. وعين الملك ابن سيبيلا من وليم مونتفرّات، وهو طفل يسمى بولدوين كذلك، وريثاً له، وعمل على تتويجه ملكاً على الفور. ثم عين ريموند الطرابلسي وصياً خلال ما تبقى من حكم بولدوين الرابع، وخلال سن القصور من حكم بولدوين الخامس.

غير أن بولدوين الرابع توفي عام 1185 فيما توفي بولدوين الخامس

في عام 1186. ولدى وفاة الملك الصغير، وبعمل حازم من جوسلين الرهاوي، ورينالد شاتييون، وجيرارد ريدفورت، أقصي ريموند عن السلطة. عند ذاك أعلنت سيبيلا ملكة، ثم جرى مشحها هي وغي وتوجا في القدس. وفكّر ريموند وأنصاره بأن يعلنوا ايزابيلا، شقيقة سيبيلا من والدتها، ملكة في وجهها، غير أن هذا المخطط لم يسفر عن شيء، إذ قدّم همفري تورون، زوج ايزابيلا، يمين الولاء لغي باعتباره ملكاً. ثم خضع خصوم غي له ولو بتردد؛ أما بولدوين إيبيلين الذي آثر النفي الاختياري في انطاكية، وريموند الطرابلسي الذي اعتزل في طبريا، فبقيا معارضين وحدهما. على أن التقلبات الخفية كانت أكبر بكثير. وفي صيف عام 1187 توصل غي وريموند إلى تفاهم ومصالحة؛ وعلى الفور تقريباً دخل صلاح الدين الجليل. وفي الرابع من يوليو، كانت هزيمة الجيش المسيحي في حطين. النتيجة معروفة جيداً: غي أسير؛ جيشه مدمرّ؛ المسلمون اجتاحوا المملكة اللاتينية.

وفي صيف عام 1188 وجد غي، عندما أطلق سراحه، أن السيطرة على صور، المدينة الوحيدة الباقية في مملكته بأيدي المسيحيين، قد أصبحت بيدي كونراد مونتفرّات. كانت مبادرته الفورية هي التي أنقذت صور من الوقوع تحت سيطرة صلاح الدين في عام 1187؛ ثم إنه كان آنذاك قد نال دعم الأعضاء الناجين من أوساط ريموند الطرابلسي. آنذاك كان ريموند نفسه وبولدوين إيبيلين قد توفيا. وكانت قيادة مجموعتهما قد انتقلت إلى باليان شقيق بولدوين، وإلى ماريا كومنينا، زوجة بولدوين، وإلى بايغان لورد حيفا، ورينالد لورد صيدا. على أن غي رغم ما واجهه من بغض منذ وصوله إلى الشرق، ورغم هزيمة حطين وفقد القدس، ورغم الأشهر في الأسر، كان لا يزال يتمتع بولاء

قسم كبير من المجتمع في الشرق اللاتيني. وبلغت الأمور ذروتها سنة 1189 حين وصل غي قبالة صور بجيش كان قد جنّده في طرابلس.

رفض كونراد أن يعترف به ملكاً وأنكر عليه حق دخولها. وبدلاً من أن يسعى إلى إخضاعه بالقوة، ردّ غي على ذلك بأن تحول إلى مهاجمة المسلمين، مجدداً بذلك التأكيد على أنه الملك؛ وبمساعدة الصليبيين الغربيين الذين كانوا آنذاك يتوافدون على الشرق، بدأ حصاراً على عكا. ولو أن جهوده هنا لقيت النجاح السريع لكانت سمعته أنقذت، ولكانت هيمنة كونراد على صور قد انهارت. لكن الذي جرى هو أن الحصار امتد طوال عام 1190 بدون أن تكون له نتيجة حاسمة. الموتى في المعسكر المسيحي بسبب المرض كانوا كثراً. وفي خريف عام 1190 توفيت الملكة سيبيلا وابنتاها الصغيرتان. آنذاك اغتنم خصوم غي الفرصة؛ غي هو الملك المتوج لكن حقوقه مستمدة من زوجته. الآن قضت سيبيلا، ولا عقب لها من زواجهما؛ لذلك يمكن القول إن حقه في الملكية قد سقط، وإن العرش يجب أن ينتقل إلى أقرب أقربائها، وإلى شقيقتها إيزابيلا من والدتها. عند ذاك ألغي زواج إيزابيلا بهمفري تورون، وزوجت من كونراد. وقبل الفريق الذي تقوده والدتها ماريا كومنينا، وباليان إيبيلين، زوج والدتها، بها ملكة وأعلنا الولاء لها. غير أن غي رفض التخلي وظل يعتبر نفسه الملك الحقيقي. وظل هو وجيشه يثابران على محاصرة عكا، فيما كان كونراد وأنصاره مستولين على صور. وظل هذا الوضع على حاله لم يتغير حتى وصول ملكي فرنسا وإنكلترا في السنة التالية.

ووجد التنافس الحاد الذي كان قائماً بين الملك ريكاردوس ملك

إنكلترا، والملك فيليب أغسطس، ملك فرنسا، مجالاً واسعاً في الشرق للتعبير عنه. الاثنان كانا مصممين على استعادة الأراضي التي استعادها المسلمون؛ كذلك توقعا، باعتبارهما قائدين لفريقين عسكريين قويين، أن تكون لهما يد في تنظيم الممالك اللاتينية التي يعاد إنشاؤها. كان مرتقباً أن يكونا على الجانبين المتقابلين في النزاع بشأن التاج. الملك فيليب وصل إلى الشرق في 20 أبريل عام 1191، وللحال أوضح أنه يؤيد كونراد. وتأخر ريكاردوس في مغادرة صقلية، حيث كان هو وفيليب قد صرفا فصل الشتاء، ثم تأخر بعد ذلك كما رأينا، في قبرص. وبمشاركة فيليب وكونراد في حصار عكا أصبح وضع غي بالغ الضعف.

إن أي هجوم ناجح لا بد أن ينتهي بأن يقوم خصومه بتنحيته جانباً وبحماية المدينة بأنفسهم. بذلك تتثبت سيطرتهم، ويفقد غي أي أمل بالاحتفاظ بالعرش. وبحركة كانت، على ما هو واضح، محاولة يائسة لتجنب هذا الاحتمال، غادر غي وجمع من كبار أنصاره، أسوار عكا وأبحروا لملاقاة ريكاردوس في قبرص. كان غرضهم تأمين تأييده، وتعجيله في الوصول إلى سوريا. لم يحققوا غير نجاح محدود. في 11 مايو قابلوا الملك الإنكليزي في ليماسول؛ وبقبول ريكاردوس يمين الولاء منهم، كان بذلك يلتزم بقضيتهم، ثم منح غي معونة مالية سخية. غير أنه كان مصمماً على إخضاع قبرص، وطلب من غي أن يعضده في حملته. وعزي قرار ايزاك كومنينوس بقطع مفاوضاته مع ريكاردوس إلى تحريض أحد أعداء غي في سوريا، هو باغان الحيفاوي الذي كان يأمل، على ما هو مفترض، أن يقوم ايزاك بتأخير ريكاردوس، وبذلك يعطي كونراد والملك فيليب مزيداً من الوقت

للاستيلاء بنفسهما على عكا. غير أن ريكاردوس لم يصل عكا قبل 8 يونيو، أي بعد شهر تقريباً من لقاء غي له لأول مرة. لم يقبل ريكاردوس أن يعجل؛ إلا أن عكا لم تسقط في هذه الفترة كذلك.

لا حاجة بنا هنا إلى سرد أحداث الأشهر التالية بالتفصيل. عكا سقطت في 12 يوليو؛ وعلى الفور تقريباً عاد فيليب إلى بلاده. وقد ضمن لكونراد مداخيل صور (ومدينتي بيروت وصيدا اللتين كانتا لا تزالان بأيدي المسلمين)، واحتمال انتقال العرش إليه وإلى ورثته عبر إيزابيلا، عند وفاة غي. ولم يرض كونراد بهذا الحل، فعمد هو وأنصاره إلى التآمر للسيطرة على عكا وإقصاء غي كلياً عن السلطة فيما كان ريكاردوس يقوم بحملاته ضد المسلمين، ولولا الدعم المتواصل من قبل ملك الإنكليز لكان وضع غي قد انهار كلياً. أثناء حصار عكا كان جيرارد ريدفورت، وجوسلين الرهاوي، والبطريرك هرقل (ايراكليوس)، حلفاؤه الثلاثة الأكثر نفوذاً بين القادة السوريين قد توفوا جميعاً. ولم يبق له أنصار آخرون في الشرق، على ما يبدو، غير شقيقه إيمري الذي كان المسؤول الأمني في القدس، وجفري الذي أصبح كونت يافا عام 1191. ثم إنه كان يمكن لوفاة الملكة سيبيلا أن تكون قد أضعفت روابط الولاء بينه وبين مقطعيه في القدس بحيث إن حاشيته كادت تقتصر بصورة رئيسية على أنصاره من بواتو. وفي أوائل عام 1192 ظهر ضعف وضعه حين أصبحت قوات كونراد على وشك الاستيلاء على عكا؛ غير أن جهود كونراد أحبطت بمقاومة ناشطة من البيزيين الذين كانوا، على ما يفترض، يميلون إلى غي، لأن منافسيهم الجنويين كانوا يناصرون خصومه، ثم بعد ذلك بوصول ملك إنكلترا في الوقت المناسب.

وبلغت الأمور ذروتها في أبريل حين بلغت ريكاردوس أنباء تقنعه بضرورة الرجوع إلى أوروبا. كان قد اتضح أن القوات المسيحية غير كافية لاستعادة القدس. وبقوة خرج تجمع القادة الصليبيين الذي دعا إليه ريكاردوس لمناقشة أمر رحيله بالرأي بوجوب حكم رجل واحد على جميع أراضي مملكة القدس المستعادة إلى السيطرة المسيحية، وأنّ هذا الرجل ينبغي أن يكون كونراد، لا غي. وأدرك ريكاردوس مدى حكمة هذا الرأي؛ ذلك يعني تغيراً مفاجئاً في سياسته ونهاية دعم محميّه. على أنه استطاع أن يجتنب اتخاذ الموقف الخاطىء؛ هنالك تطور مستقل كلياً مهّد السبيل أمامه لمكافأة غي مكافأة سخية.

في الرابع من أبريل عام 1192، هبَّ القبارصة متمردين على الداوية؛ الانتفاضة أخفقت لكن المنظمة كانت قد اهتزت إلى درجة كافية بحيث أعادت الجزيرة وهي لا تزال مدينة عنها بمبلغ 60000 بيزنت للملك ريكاردوس. بعد ذلك راحت الأحداث تتوالى سراعاً. المفترض أن ريكاردوس كان يعلم أن الداوية يتنازلون عن قبرص حين قرر أن يقبل بكونراد ملكاً معيناً. هنا أعطى غي فرصة شراء الجزيرة بمبلغ 100000 بيزنت وأتاح له فترة شهرين ليجد أثناءها مبلغ 60000 بيزنت كدفعة أولى. ولم يواجه بيتر أنغوليم، مستشار غي، صعوبة في جمع المال من التجار في طرابلس خلال أقل من شهر واحد.

لقد أمست قبرص له في فترة ملائمة، غير أن الصراع على السلطة في اليابسة لم ينته. ففي 28 أبريل، قبل أن يتسنى لغي أن يتسلم مملكته الجديدة، قتل كونراد اغتيالاً. غير أن أي أمل راود غي بأن يستعيد مكانته تحطم حين زوجت الملكة إيزابيلا، أرملة كونراد، بسرعة غير

لائقة بالكونت هنري شامباني القائد الصليبي الفرنسي البارز الذي كان لا يزال في الشرق. إن هنري حفيد الملك لويس السابع الفرنسي من زوجته الأولى إليانور أكونتيين، وهو نسيب قريب لريكاردون الإنكليزي وفيليب الفرنسي معاً، يتمتع بالدعم الكامل من القادة الإنكليز والفرنسيين في الشرق، ومن أنصار كونراد بين النبلاء في سوريا. على أن غي رفض أن يقتنع بقبرص؛ وتورط مع البيزيين بمؤامرة للاستيلاء على صور. ويقال إن ملك إنكلترا الذي لم يلح في الأصل على غي للإسراع في تسديد مبلغ 40000 بيزنت باقية له عليه، ذهب إلى حد وعد هنري شامباني بأن تكون له قبرص، بالإضافة إلى الممتلكات المسيحية في فلسطين. غير أن هذا الوعد لم ينفذ، حتى لو كان قد قطع فعلاً، مع أن ريكاردوس منح هنري حقوقه بقبض الرصيد المتبقي له من بيع الجزيرة.

وفي سبتمبر عام 1192 اتفق المسيحيون والمسلمون على هدنة، وفي وقت باكر من الشهر التالي أقلع ريكاردوس عائداً إلى الغرب. وكان غي قد أخذ معه أنصاره الذين أرادوا مرافقته إلى قبرص؛ والمرجح أن رحيله ساعد على خفض التوتر بين الفئات السياسية. على أنه حدثت حادثة أخرى مثلت استمرار النية السيئة. لقد أقدم هنري على الانتقام من البيزيين لدورهم في المؤامرة للاستيلاء على قبرص؛ وحين تدخل إيمري لوزينيان لمصلحتهم، سجنه هنري. وأثار هذا التدبير الاحتجاجات من بعض الشخصيات البارزة في المملكة وكانت النتيجة أن هنري أفرج عن إيمري مقابل تخليه عن منصب المسؤول الأمني في القدس، ثم سمح له بأن يلتحق بشقيقه في قبرص.

إن السنوات الاثنتي عشرة التي مضت بين وصول غي إلى الشرق

وشرائه قبرص كانت مميزة بالصراعات الفئوية المتواصلة. وباستيطانه في الجزيرة، كان طبيعياً أن يلتفت إلى أنصاره أثناء السنوات السابقة، وأن يرفعهم إلى مراتب بارزة. أما أتباع ريموند الطرابلسي، وكونراد مونتفرّات، وهنري شامباني، فلم يكن لهم مكان هناك أبداً. وإزاء هنري لم يرض غي بأي مصالحة، إذ ظلّ يطالب بمملكة القدس حتى وفاته التي حدثت حوالى نهاية 1194. ومن الصعب الوصول إلى نظرة متوازنة لعمله لأن المصادر عنه متحيزة إلى حد عنيف. إلا أنه ذو أهمية أن يقول عنه كاتب إنكليزي حسن الاطلاع إنه كان أميل إلى السذاجة حتى أثناء التآمر، ولكنه أثنى عليه لإدارته حصار عكا، كما أن عماد الدين، المؤرخ المسلم لصلاح الدين، أشار إلى إدارته الجيدة لقبرص.

وعين غي لوزينيان شقيقه جفري خلفاً له في قبرص ولكن جفري الذي كان أحد أبطال الحملة الصليبية الثالثة لم يبد أي اهتمام. الظاهر أنه فضل أراضيه في بواتو على قبرص وعلى كونتية يافا، وعاد إلى بلاده، عام 1192. وبناء على ذلك اختار مقطعو غي شقيقه الآخر إيمري، سيداً عليهم. وبما أن إيمري هو شقيق غي الأكبر فإن تسلمه للعرش لا يمكن اعتباره، بصورة دقيقة، كقضية وراثة، غير أنه بخبرته الطويلة في الشرق كان الخيار الموفق ولا ريب؛ الواقع أنه بدا الخيار الواضح.

وقبل انقضاء ثلاث سنوات على وفاة غي، كان إيمري قد حقق إنجازين هما: إنشاء تراتبية كنسية لاتينية ورفع قبرص إلى مرتبة مملكة، هو أول ملوكها. لقد بدأت مبادرات إيمري عام 1195 بإرسال رئيس شمامسة اللاذقية إلى البابا برسائل تتعلق بمستقبل الكنيسة في الجزيرة. ووافق البابا سلستين الثالث على وضع مخطط؛ وأصدر في ديسمبر عام

1196 رقيماً بابوياً دشّن به إنشاء الأبرشية اللاتينية. وكان يجب لرئيس أساقفة نيقوسيا أن يكون له مساعدون في بافوس، وليماسول، وفمغوستا، وهو التنظيم الذي استمر حتى الفتح التركي في القرن السادس عشر. وأول رئيس للأساقفة هو مستشار إيمري، وأول أسقف في بافوس هو مبعوثه في السنة السابقة. ومن المرجح، كما ألمح أحد الكتاب، أن إنشاء التراتبية اللاتينية قد اعتبر من قبل المعاصرين بمثابة شرط ضروري للحصول على العرش.

من المؤكد أن فكرة ملك بموجب الطقوس الغربية بدون أساقفة لاتين في المملكة شيء لا يمكن التفكير فيه؛ ومرد ذلك على الأقل إلى أنه سيكون هو ومن يأتي بعده ملزمين بالاعتماد على رجال دين زائرين أو على أساقفة يونانيين من أجل التتويج.

لقد حصل إيمري على لقبه الملكي من الأمبراطور الغربي هنري السادس/ هوهنشتاوفن. وفي عام 1195 حمل هنري الصليب وراح يخطط لقيادة حملة صليبية إلى الشرق في عام 1197. كان رجلاً طموحاً. كان قد احتل صقلية، وعزم، بالإضافة إلى القيام بحملة صليبية على سوريا، على أن يخضع بيزنطية. إن فكرة جعل قبرص مملكة تحت السيادة الأمبراطورية ملائمة لمخططاته ملاءمة جيدة. وبدوره كان لإيمري أن يكسب الكثير من رفع ملكه في الجزيرة إلى مرتبة مملكة، حتى لو عنى ذلك القبول بسيادة هنري. إن ملكية التاج تعزز مكانته الخاصة وتسهم في ضمان استمرار حكم قبرص من قِبَل أبنائه. يضاف إلى أن الفوائد الدبلوماسية المحتملة كبيرة. ويقال إن الخوف من هجوم بيزنطي على قبرص هو الذي دفع به إلى الاتصال أولاً؛ وفي هنري وجد إيمري حليفاً كان ولا ريب معادياً للقسطنطينية. وإذا ما أصبح ملكاً، فإن

إيمري يضع بذلك حداً لفكرة إمكان اعتبار قبرص «ملحقة بالقدس» وهو اعتبار مقنع نظراً إلى العلاقات السيئة التي كانت سائدة بين آل لوزينيان وهنري شامباني. زد على ذلك أن سيادة الأمبراطور بنفسها تضمن له أنه بوصوله شخصياً إلى الشرق لن يقلب النظام في قبرص، حتى لو كان قد أنشىء برعاية عدوه ريكاردوس ملك إنكلترا.

وفي الوقت الذي توجه فيه رئيس شمامسة اللاذقية إلى روما، لفتح مفاوضات مع البابا لإنشاء تراتبية كنسية لاتينية، أرسل إيمريْ مقطعه رينيه الجبيلي سفيراً من قبله إلى الامبراطور. ووافق هنري على طلباته، وقبل ولاءه بصفته مندوباً عن إيمري ثم أرسل أسقفي تراني وبرنديزي ومعهما الشارات الملكية. ويبدو أن الأسقفين وصلا إلى قبرص في أبريل أو مايو عام 1196؛ ولإيمري أن يعتبر نفسه ملكاً منذ ذلك الحين. أما التتويج الفعلي فأجل إلى عام 1197، لأن الأمبراطور كان يأمل أن يحضر الاحتفال بنفسه. غير أن التمرد في صقلية وإصابته بالمرض آنذاك أعاقاه عن الرحيل؛ وأخيراً غادر صقلية فريق طليعي بدونه يضم المستشار الأمبراطوري، كونراد أسقف هيلدشايم؛ ووصل إلى الشرق في سبتمبر عام 1197، وقام كونراد بتتويج إيمري ملكاً على قبرص. وفي الشهر نفسه توفي هنري، وتوقفت حملته الصليبية؛ وفي أوائل عام 1198 عاد الصليبيون الذين كانوا قد بلغوا سوريا. وغرقت الأمبراطورية في فترة حرب أهلية متطاولة؛ وطوال مدة قاربت ثلاثة عقود عجز المتحدرون من هنري عن التدخل في الشرق، أو عن أن يجعلوا من سيادتهم على قبرص شيئاً فعالاً. لقد نال إيمري التاج، لكن الحلف الذي أمّل حصوله بوجه بيزنطية ولد ميتاً.

لقد كانت مخاوف إيمري من احتمال انتقام بيزنطية ذات أساس، بيد

أنه رغم كل التهديدات لم يقع أي هجوم. ومن ناحية أخرى لم يكن هنالك أي شك في حتمية حدوث حملات إسلامية على مملكة القدس اللاتينية المجتزأة عند انتهاء الهدنة عام 1196. ومن المؤكد أن هذا الخطر هو الذي دفع بمقطع هنري شامباني إلى الحث على التفاهم مع إيمري. ولعل لديهما، كفردين، أسباباً أخرى للرغبة في إنهاء ما بينهما من استياء. هنالك عائلات، منها عائلة بيسان التي ذكر خصيصاً أنها تعمل للتقارب، لها مصالح في المملكتين؛ ثم إن العديد من الشخصيات الرئيسية في المملكة اللاتينية كانوا أنسباء لأسكيفا إيبيلين زوجة إيمري الأولى، ولهم بالتالي أسباب عائلية للعمل على رأب الصدع.

وفي عام 1197 أقنع هنري بزيارة إيمري في قبرص؛ وتفاهم الحاكمان رسمياً، ثم عقدا تحالفاً، أساسه أن يتزوج أبناء إيمري الثلاثة من أسكيفا من بنات هنري الثلاث. على أنه يبدو أن المهور هي يافا التي يجب أن توضع تحت حماية إيمري على الفور، ثم أن يتنازل هنري عن الرصيد المتبقي له من شراء قبرص في عام 1192. وحتى قبل افتراق الحاكمين وصلهما النبأ بأن الهجوم الإسلامي بدأ. هنا وجه إيمري رينطالد بارليه على رأس قوة صغيرة لاستلام يافا التي كان معلوماً أنها، وهي المركز الجنوبي الأبعد في مملكة القدس، هدف الهجوم. بالتفاهم حقق مكسباً؛ لقد ضمن إلغاء دينه إلى هنري وبذلك أنهى أي ادعاء من هنري بأن له الحق في قبرص. ومن المحتمل أيضاً أنه في ذلك الوقت أعيد إلى منصب المسؤول الأمني في القدس؛ ثم إنه نال يافا ولو أن حاميته كانت بوضعه ملكاً مستقلة على أن اتفاقيات الزواج لم تسر وفق المراد، كما كان متوقعاً.

إن الأبناء كلهم كانوا لا يزالون صغاراً بحيث لا يمكن تزويجهم على

الفور. كما أن اثنين من أبناء إيمري وواحدة من بنات هنري توفوا في سن الطفولة. وفي النهاية، في عام 1210، تزوج هيوغ، ابن إيمري الذي بقي على قيد الحياة، من أليس ابنة هنري. إن أهمية التفاهم عام 1197 تستحق التنويه بها؛ لقد أنهت الصراع الفئوي الذي أساء إلى السياسة اللاتينية السورية منذ وصول غي لوزينيان إلى الشرق، ولو أنه لم تمضِ سنوات عديدة قبل بدء نزاعات جديدة، وقيام تحالفات جديدة. يضاف إلى ذلك أن الدفاع غير الفعال عن يافا، كما هو مسلم به، كان أول دليل على حاكم من آل لوزينيان في قبرص يهب إلى مساعدة مملكة القدس اللاتينية.

في العاشر من سبتمبر، وبعد أسابيع قليلة من التفاهم والمصالحة، وقبل وقت قصير من استسلام يافا للمسلمين، سقط هنري شامباني من نافذة في الدور الأول وتوفي. مرة ثانية أصبحت إيزابيلا، وريثة القدس، أرملة. وعلى الفور أعلن أنه يجب لها أن تتزوج مرة أخرى، وأن زوجها الجديد، وهو الرابع، يجب أن يحكم المملكة. منهم من أراد لها أن تتزوج أمير بيت المقدس، رالف الطبراني، لكنهم هزموا أمام الآخرين ومنهم المجموعات العسكرية، والصليبيون الألمان الذين وصلوا إلى الشرق بعد وقت قصير من وفاة هنري شامباني، ومستشار القدس، رئيس الأساقفة جوسيوس الصوري، وقد ألحوا على زواجها بالملك إيمري الذي كانت زوجته أسكيفا قد ماتت موخراً. كانت موارد قبرص تجعل من إيمري مرشحاً مرموقاً في أعين أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى من يستطيع أن يأتي بتعزيزات للدفاع عن الشرق؛ ثم إن الألمان فضلوه ولا ريب لأنه كان يحكم مملكة تابعة للأمبراطورية. وقام رئيس أساقفة صور بالاتصالات، على ما يبدو، والظاهر أن زواجهما

عقد، أو لعلها الخطبة فقط، في أواسط أكتوبر. وكان اختيار إيمري، على ما رُوي، بالإجماع تقريباً. في البداية كانت لبطريرك القدس محاذيره بشأن صحة الزواج كنسياً، لكنه سحب اعتراضاته على ما يبدو، إذ إنه هو الذي قام بخدمة التتويج. الآن صار ملك قبرص الجديد ملكاً على القدس أيضاً، بالزواج.

وحكم إيمري لوزينيان قبرص ومملكة القدس حتى وفاته في أبريل، عام 1205؛ المملكتان متصلتان بشخص الملك فقط. وبغير ذلك بقيت لكل منهما هويتها المنفصلة ومؤسساتها الخاصة بها، لكل منهما محكمتها العليا وقضاتها. وإذا أمكن لنا أن نستدل بلائحة الشهود على البراءة الملكية القبرصية الوحيدة الباقية الصادرة عن إيمري بعد حصوله على تاجه الثاني، فإنه لم ينهج سياسة مكافأة أنصاره المقدسيين بإقطاعات ومناصب في مملكته الجزرية. إلا أنه كان من ناحية أخرى على استعداد لاستخدام قواته القبرصية في الحملات العسكرية التي تخاض خدمة للقدس. الفرسان والرقباء القبارصة كانوا موجودين في حصار بيروت في أكتوبر عام 1197؛ وفي عام 1204 تشاركت القوات القبرصية وسوريا اللاتينية معاً في غارة بحرية على ساحل مصر. وفي أية حال، إن عهد إيمري كان، في الغالب، عهد سلام. الهدنة مع المسلمين جددت في يوليو عام 1198 لمدة خمس سنوات وثمانية أشهر. وفي الغرب كان يجري إعداد حملة صليبية أخرى؛ غير أن القسم الرئيسي من الحملة لم يصل الشرق.و بدلاً من ذلك، انحرفت إلى بيزنطية. الصليبيون نهبوا القسطنطينية وأنشأوا ما عُرف بالأمبراطورية اللاتينية بدلاً منها. لم يذكر لنا كيف كانت ردة فعل إيمري على هذه الأحداث مع أن التعليقات المريرة من قبل كاتب في الشرق، في وقت لاحق،

توحي بأنها كانت تعتبر مثار حقد واستياء. إلا أنه مع انتهاء الهدنة كان هنالك نزاع محدود، كان الاشتباك الأكثر بروزاً هو الغارة البحرية عام 1204؛ وفي سبتمبر من هذا العام جددت الهدنة لست سنوات هذه المرة. كان عهد إيمري عهد توطيد وترسيخ، المسلمون صدوا، والمملكة اللاتينية حققت الاستقرار. والحدث الوحيد الذي هدد الهدوء الداخلي ثم حين قام إيمري بإكراه رالف الطبراني، منافسه على يد إيزابيلا، على أن يذهب إلى المنفى بعد محاولة اعتداء على حياة الملك، اتهم بأن له ضلعاً فيها. واعترض بعض المقطعين، من أنصار رالف في مملكة القدس، ولكن عبثاً، والظاهر أنه لم تكن للحدث تأثيرات دائمة. والحقيقة أن سمعة إيمري كانت عالية بين الأجيال التالية من البارونات المحايدين الذين كان رالف محترماً بينهم لمقدرته القانونية.

لقد أسس غي وإيمري لوزينيان حكماً غربياً دائماً في قبرص، غير أنهما وقد توليا عرش القدس، عجزا عن تأسيس سلالة لوزينيان في مملكة البرّ كذلك. إيمري هو والد الابن الوحيد الذي ولد للملكة إيزابيلا، غير أن الطفل مات قبل والده؛ لقد مات في فبراير عام 1205، فيما مات إيمري نفسه في أول أبريل من ذلك العام؛ وحين لحقته إيزابيلا إلى القبر بعد وقت قصير من ذلك، انتقل عرش القدس إلى ابنتها الكبرى ماريا، ابنتها من زوجها كونراد مونتفرّات. وفي قبرص خلف إيمري ابنُه هيوغ، وهو ابنه الوحيد السالم من زوجته أسكيفا إيبيلين، وقد حكم من 1205 حتى وفاته عام 1218. بعد ذلك خلفه ابنه الوحيد هنري الأول (1218 ـ 1253)، ثم هيوغ الثاني (1253 ـ 1267)، وهو ابن هنري. وفي سنة 1267 انتهى أبناء إيمري الذكور، وانتقلت السلطة إلى إحدى بنات هيوغ الأول.

وفي عام 1268، بإعدام كونراد الخامس من هوهنشتاوفن، انتهى الفرع الرئيسي لعائلة القدس الملكية؛ وبصفته متحدراً عبر جدته الملكة إيزابيلا وهنري شامباني، فقد تولى الملك هيوغ الثالث عرش مملكة اليابسة. مرة أخرى كان لقبرص والقدس ملك واحد؛ بعد ذلك أصبح لملوك قبرص لقباهم من المملكتين ولو أن الممتلكات المسيحية التي كانت قد تبقت على الساحل السوري انتقلت إلى المسلمين عام 1291. وفي أواخر الستينات من القرن الثالث عشر كانت مملكة القدس أو ما تبقى منها بحاجة إلى فترة في ظل حكم قوي ناشط إذا كان للحملات الاسلامية أن تصد. تلك الحاجة رآها هيوغ الثالث وقام بجهود باسلة للوقوف بوجه الخطر، غير أنه وجد نفسه عاجزاً عن توحيد مختلف المصالح في سوريا اللاتينية وراءه. وفي عام 1276 أحس باليأس، وانسحب إلى قبرص. ومرد بعض المشكلة إلى أن حقه في عرش القدس كان موضوع نزاع. ماريا الانطاكية، إحدى بنات عمه العازبة، طالبت بالعرش، واستدارت، كهيوغ بريين، إلى تشارلز أنجو، ملك صقلية. ثم ابتاع تشارلز زعمها هذا لنفسه، وفي عام 1277، بعد رحيل هيوغ، استولى ضباطه على عكا.

وتوفي هيوغ الثالث عام 1284، وخلفه ابنه الأكبر جون الذي توفي في السنة التالية؛ ليخلفه ابنه الثاني هنري الثاني الذي حكم حتى عام 1324. وفي عام 1286 استعاد هنري السيطرة على عكا لآل لوزينيان، وهو نجاح أمكن تحقيقه بفضل تمرد في عام 1282 في صقلية وضع نهاية لغاية آل أنجو الصقليين التوسعية. وفي عام 1291 احتل المسلمون عكا والموانىء المسيحية الأخرى، وانسحب هنري والناجون إلى قبرص. ثم كان الكثير بما تبقى من حكم هنري الذي امتد 39 عاماً، وهو الأطول

لأحد الملوك اللوزينيانيين، قصة كئيبة من صراعات مع النبلاء، وإشارات لا طائل تحتها من العداء نحو المسلمين، ودبلوماسية لا جدوى منها. كثيراً ما كان الملك مريضاً، ولا ريب أنه كان عاجزاً. وعند وفاته انتقل العرش إلى ابن شقيقه، هيوغ الرابع (1324 ـ 1359). ولم يكن وصول هيوغ الرابع ولا ابنه بيتر الأول (1359 ـ 69) إلى العرش بدون تحدٍ، غير أن عهدي هذين الملكين يعتبران بوجه عام بمثابة الفترة التي وصلت فيها قبرص اللوزينيانية ذروة القوة والازدهار. وفي عهد بيتر الأول عرفت السلالة عهداً قصيراً من المجد العسكري. ولكن المملكة، أثناء عهد ابنه وخلفه بيتر الثاني (1369 ـ 1382)، عرفت غزواً أوهنها من قبل الجنويين الذين احتلوا فمغوستا ما بين عامي 1373 و1464.

بعد ذلك ترافق الانحطاط السياسي والاقتصادي معاً. وفي عهد جايمس الأول (1382 ـ 98)، كسبت السلالة تاجاً ثالثاً، هو تاج أرمينيا الكيليكية، وهو لقب فخري بحت إذ إن كيليكيا كانت قد خضعت للفتح الإسلامي قبل سنوات قليلة. وفي عهد الملك جانوس (1398 ـ 1432) غزا المماليك قبرص من مصر وسببوا خراباً كبيراً، وفرضوا الجزية على الجزيرة. وبعد وفاة جون الثاني، عام 1458، شبت حرب أهلية بين أنصار وريثته وأنصار ابنه غير الشرعي، جايمس. انتصر جايمس في النهاية وحكم حتى وفاته عام 1473. وتوفي ابنه الوحيد الشرعي في السنة التالية وهو طفل، وبوفاته انتهت السلالة. أرملته المرأة النبيلة من البندقية، كاثرين كورنارو، حكمت بنفسها تحت رعاية البندقية حتى أقنعت في عام 1489 بالاستقالة لإتاحة المجال أمام البندقية لاستلام السلطة مباشرة. وبرحيلها إلى الغرب في تلك السنة لم يعد للمملكة القبرصية وجود.

4

عائلة إيبيلين

كانت عائلة إيبيلين أبرز العائلات النبيلة في قبرص أثناء العصور التي حكم فيها آل لوزينيان. أصولها السابقة للقرن الثاني عشر مجهولة؛ هنالك رواية في مصادر القرن الرابع عشر تربط العائلة بفيكونتات شارتر؛ غير أن هذا الزعم لا يمكن أن يصمد للتدقيق؛ ثم إن الإثباتات التي تتصل بدراسات الأسماء تشير إلى خلفية ايطالية أقل شهرة، لعلها من بيزا أو سردينيا. على أن مؤسس مكانة إيبيلين في الشرق هو باريزان أو باليان «الكبير» الذي كان في العقد الثاني من القرن الثاني عشر قد أصبح آمر قلعة يافا. وفي أوائل الأربعينات من القرن الثاني عشر منحه الملك فولك قلعة ولوردية إيبيلين (يفنة الحديثة) إقطاعة له في كونتية يافا. ثم جاء زواج باريزان بامرأة وارثة لإقطاعة أخرى هامة في الكونتية نفسها، هي لوردية الرملة؛ بعد ذلك صار هو والمتحدرون منه بعده يعدون بين كبار البارونات البارزين في القدس. وفي الجيل التالي برز أبناء باريزان الثلاثة، هيوغ، وبولدوين، وباليان، في المقدمة. ثم رفع باليان من شأن العائلة أكثر فأكثر حين تزوج عام 1177 من ماريا

كومنينا، أرملة ملك أموري في القدس، ووالدة الملكة المقبلة إيزابيلا (1192 ـ 1205).

وفي نهاية القرن الثاني عشر، ومع ابني باليان من ماريا، شقيقي الملكة آنذاك، عبر الأم، ترسخت مكانة آل إيبيلين البارزة إلى الأبد في مملكة القدس. وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر حققت هذه العائلة مكانة مماثلة في قبرص؛ إن قصة تقدمها هي بمثابة حكاية توحيد للجزيرة أثناء عهد هيوغ الأول، وعهد ابنه القاصر هنري، ثم الحرب الأهلية من 1229 إلى 1233.

لم يظهر آل إيبيلين بين المستوطنين الأوائل في قبرص. وفي الفترة التي سبقت هزيمة المسيحيين في حطين .وفقد القدس، كان الشقيقان الحيان، باليان وبولدوين، خصمين ملحوظين لآل لوزينيان مع أنهما كانا عام 1186 عاجزين عن التصدي للانقلاب الذي رفع غي لوزينيان إلى السلطة. وبدلاً من التفاهم مع النظام الجديد آثر بولدوين المنفى في انطاكية؛ وبقي هناك على ما يبدو حتى وفاته. وبعد حطين واصل باليان معارضته لغي وانضم إلى كونراد مونتفرّات. وفي عام 1190، وكحيلة لحرمان غي من حقوقه كملك، بادر إلى تزويج إيزابيلا، ابنة ماريا كومنينا، التي كانت وريثة عرش القدس، من كونراد. ثم أنهى باليان أيامه حوالى عام 1193 كمقطع كبير لهنري شامباني. وفي مثل هذه الحالة ليس من المدهش أن تنقصنا الإثباتات؛ على أن أفراداً من عائلة إيبيلين رافقوا غي لوزينيان إلى قبرص وتلقوا منه الأراضي بعد أن استولى على الجزيرة.

وبعد وفاة غي لوزينيان وباليان إيبيلين كان السبيل مفتوحاً لتحسين

العلاقات بين العائلتين. في قبرص، تزوج إيمري، شقيق غي وخلفه، من أسكيفا ابنة بولدوين إيبيلين. ظروف هذا الزواج وتاريخه مجهولة، غير أنه عنى أن آل إيبيلين أصبحوا أقارب شديدي القربى للسلالة الجديدة. وفي منتصف التسعينات من القرن الثاني عشر توفيت أسكيفا؛ وفي عام 1197 تزوج إيمري من إيزابيلا ملكة القدس. وأدى هذا الزواج إلى تعزيز علاقاته بعائلة إيبيلين، لأن جون وفيليب، ابني باليان هما شقيقان لإيزابيلا لأم واحدة. هما ليسا ابني خصومه السابقين فقط، وكان جون إيبيلين قد نال منصب المسؤول الأمني في القدس من هنري شامباني بعد أن أجبر إيمري نفسه على التخلي عنه. وفي عام 1198، كان جون الذي لم يكن آنذاك قد تجاوز سن العشرين، أحد أولئك اللوردات الذين حاولوا معارضة إيمري حين نفى الملك رالف الطبري. وحوالى نهاية غهد إيمري استقال من منصبه كمسؤول أمني ليعطى، بدلاً من ذلك لوردية بيروت التي كانت، إذا ما صدقنا كل ما يعزى إليه بعد سنوات «مدمرة تدميراً كلياً، إلى درجة أن الداوية والاسبتارية وجميع بارونات سوريا كانوا قد رفضوها». وفي المدى الطويل كان هذا التغيير في مصلحة جون؛ على أنه من المحتمل آنذاك أن بيروت لم تكن التعويض الوافي بالنسبة إلى المنصب الأمني الذي منحه إيمري لمحظيّه وصهره الجديد ولتر مونتبيليارد. وسواء عرف الشقيقان إيبيلين أم لم يعرفا بالعلاقات الودية مع الملك، فالصحيح أنه ليس هناك أي دليل على أن إيمري رسخ جون أو فيليب إيبيلين، ابني عم زوجته الأولى وشقيقي زوجته الثانية لأم واحدة، في قبرص.

لعل عائلة إيبيلين افتقرت إلى الثروة أو إلى النفوذ في مملكة إيمري في الجزيرة؛ أما في مملكة القدس فقد بلغت أعلى مكانة ممكنة دون العزّ

نفسه. وحين توفي إيمري في أبريل عام 1205، قبلت الملكة إيزابيلا بجون إيبيلين كخيار من قبل مقطعيها ليحكم باسمها معاوناً لها. وواصل الحكم بعد وفاتها في تلك السنة، في وقت لاحق، وظلّ يمارس السلطة حتى وصول جون بريين سنة 1210 للزواج من الملكة الجديدة ماريا مونتفرّات.

وفي قبرص كان الرجل الذي اعتلى العرش عام 1205 ذا خلفية مغايرة جداً. ولتر مونتبيليارد هو الابن الثاني لآميه مونتفوكون، كونت مونتبيليارد. كان قد صرف حياته الأولى في الغرب. وفي عام 1199 حمل الصليب استجابة للدعوة إلى الحملة الصليبية الرابعة؛ إلا أنه في ربيع العام 1201 غادر المجموعة الرئيسية من الصليبيين لينضم إلى قريبه ولتر بريين لتحقيق طموحاته في جنوبي إيطاليا. والظاهر أنه آنذاك فقط قدم إلى الشرق. وزوّجه الملك إيمري ابنته برغنديا وعيّنه مسؤولاً أمنياً على القدس. ولئن استحال تحديد موعد وصوله بالضبط فإن وجوده في الشرق عند وفاة الملك لا يمكن أن يكون قد مضى عليه أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات.

لا ريب أن ولتر مونتبيليارد كان نشيطاً وطموحاً. كان الميناء الأهم على الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى هو ساتاليا (أو انطاكيا حالياً)؛ وبانهيار القوة اليونانية في المنطقة بعد تدمير الأمبراطورية البيزنطية من قبل الحملة الصليبية الرابعة، حاولت مصالح عديدة أن تستولي عليها. النظام اللاتيني الجديد في القسطنطينية منحها للداوية؛ ثم حاول هذا النظام الحصول على تثبيت لهذه الهبة من الموفد البابوي في الشرق ومن البابا أنوسنت الثالث؛ غير أن ساتاليا كانت تقع بعيداً عن المنطقة التي

يسيطر عليها الصليبيون؛ ثم إن هذه الهبة التي لم تحقق أكثر من حقوق نظرية لم تفد الداوية في شيء، وفي عام 1207 وقع التنازع على ملكية المدينة بين السلطان السلجوقي في «روم» والحاكم الفعلي وهو قرصان ايطالي يوناني يسمى ألدو براندينو. وحين حاصره السلاجقة، استغاث ألدو براندينو بقبرص لنجدته. عند ذاك أقدم ولتر على ما بدا أنه حملة كبرى، ونجح في رد المهاجمين. والذي حدث بعد ذلك بالضبط غير واضح، غير أن اليونان، في ساتاليا، انقلبوا، على ما بدا ضد ولتر، واستدعوا الأتراك لطرد القوات القبرصية. وفي وقت متأخر من القرن الثالث عشر، كان يعتقد أن ولتر حاول كذلك أن يكسب قطعة أخرى من الأرض البيزنطية، هي جزيرة رودوس. وقد عنت السيطرة على ساتاليا ورودوس سيطرة على الطريق التجارية الأساسية في شرقي البحر الأبيض المتوسط، لأن ذلك كان من شأنه أن يوطد الحكم القبرصي في جميع الموانىء الرئيسية التي ترسو فيها السفن بين كريت وشمالي سوريا. ولو أن ولتر حقق هدفه لكانت الفوائد الاقتصادية والاستراتيجية كبيرة، ولكان وضعه السياسي قد قوي إلى حد كبير. غير أن النجاح لم يحالفه.

وحاول ولتر تعزيز وضعه أيضاً بخلق مسلسل من التحالفات بالزواج. على أن منجزاته هنا قصرت مرة أخرى عما استهدفه. الظاهر أنه زوّج شقيقة زوجته، هلفس لوزينيان، إلى أحد أنسبائه أودو دامبيير. ومع أن أودو زعم في وقت لاحق أن الزواج تم، إلا أن الزوجين افترقا؛ بعد ذلك تزوجت هلفس الأمير الأرمني رايموند روبن. والزواج الآخر الأكثر أهمية إلى حد أبعد هو زواج الملك هيوغ الأول من أليس شامباني. لقد سبق أن ذكرنا أن إيمري لوزينيان وهنري شامباني اتفقا عام 1197 على أن أبناء إيمري يجب أن يتزوجوا بنات هنري؛ غير

أن إحدى بنات هنري وجميع أبناء إيمري، غير واحد منهم، ماتوا أطفالاً. وفي عام 1206، بناء على طلب ولتر، كتب البابا إلى بطريرك القدس يطلب منه أن يراجع اتفاقية عام 1197 التي وصلته، ولا سيما من حيث جدواها للشرق اللاتيني، وليتأكد أن الزواج المقترح قد نفذ. آنذاك كانت أليس وريثة لعرش القدس؛ هي شقيقة الملكة ماريا مونتفرات لأمها؛ ولعل ولتر، بالإلحاح على هذا الزواج، أمل أن يوسع نفوذه الخاص إلى الأرض المقدسة. وهنالك مصالح أخرى يمكن لها أن تنتفع بزواج أليس من هيوغ. أليس تدعي أن لها حقاً في أراضي والدها في فرنسا؛ ثم إن بلانش نافار، كونتيسة شامباني وأم الطفل الكونت ثيبو الرابع حريصة على زواجها في الشرق آملة أن يقل احتمال عودتها إلى أوروبا للمطالبة بحقوقها. وفي عام 1207 أرسلت بلانش ممثلاً قام بالفعل برشوة حارسي أليس، خاليها جون وفيليب إيبيلين، لتنفيذ اتفاقية عام 1197.

ومهما كانت الظروف الدقيقة لسقوط ولتر في قبرص، فقد كانت للحدث مضاعفات ذات أبعاد. لقد استطاع ولتر أن يحرج هيوغ بشكواه إلى البابا أنوسنت الثالث لمعاملته الخاصة، وكذلك عن انتخاب أسقفي غير نظامي أجري في قبرص، وهي الشكوى التي أسفر عنها تعنيف حاد من البابا للملك. وفي سوريا رحب جون بريين بولتر؛ ومنذ عام 1210 حتى وفاته، في عام 1212، على ما يظهر، كان ناشطاً في غزو الأراضي الإسلامية بالنيابة عن جون. ثم رافق بداية حكم هيوغ الأول الشخصي قلب سياسات ولتر بالنسبة إلى علاقات ولتر الخارجية. وبدلاً من مواصلة محاولة اكتساب ساتاليا بالقوة، قام هيوغ بالتفاوض مع حاكمها السلطان السلجوقي في الروم، كافلاً سلامة الترك والقبارصة

المعنيين بالتجارة بين قبرص والموانىء الخاضعة لسيطرة السلطان على الشاطىء الجنوبي من الأناضول. وفي الأجزاء الشمالية من الممالك اللاتينية في سوريا، اشتبك الأمير بوهمند الرابع الانطاكي الطرابلسي بدعم من الداوية في حرب على العرش في أنطاكية مع ليو الأرمني وحفيده ريموند روبن اللذين تمتعا بدورهما بدعم من الاسبتارية. لقد كان ولتر، كما يثبت المقطع الذي يتناول نفيه، على علاقات طيبة مع بوهمند والداوية معاً، فيما أيد هيوغ خصومهما. وفي عام 1210، فور سقوط ولتر على ما يفترض، زوج هيوغ اثنتين من أخواته إلى ليو وريموند روبن، مما يثبت بوضوح حقيقة مشاعره في هذا الصراع. ومع الاسبتارية كانت لهيوغ، على ما يبدو، علاقات وثيقة بصورة خاصة. وفي عام 1210، في بداية حكمه الشخصي، أكّد ووسّع حقوقهم وممتلكاتهم في قبرص؛ وفي عام 1214 أرسل قوة قبرصية للانضمام إليهم في حملة في سوريا؛ ولدى وفاته في عام 1218، دفن، بناء على رغبته، على ما هو مفترض، في كنيسة للاسبتارية.

وكان تولي جون بريين عرش القدس واستقباله لابن عمه ولتر مونتبيليارد بمثابة بداية مرحلة توتر جديدة بين القدس وقبرص. ويعود أول دليل واضح على العلاقات المتوترة إلى أوائل عام 1213 حين كتب البابا إلى هيوغ يتهمه بمساعدة العصاة على سلطة جون وإساءة معاملة وسجن مجموعة من مقطعيه الذين لاذوا بقبرص في فرارهم من بعض السفن الإسلامية. ومع توالي الاستعدادات للحملة الصليبية الخامسة (1217 ـ 1221) كان البابا يتزايد حرصاً على أن ينهي المسيحيون في الشرق خلافاتهم. وفي عام 1215 أو عام 1216 كتب إلى هيوغ والملك ليو الأرمني معاً يطلب منهما أن يعقدا صلحاً مع الملك جون، وأن يعدا

السفن لاستقبال الحملة الصليبية. ومع وصول الصليبيين الأوائل (سبتمبر وأكتوبر عام 1217)، كان هيوغ وجون متصالحين إلى حد كاف بحيث إن هيوغ أتى بقوة قبرصية تضم عدداً من كبار مقطعيه للانضمام إلى حملة على الجليل؛ بعد ذلك نشأت نزاعات بين جون بريين من ناحية وهيوغ والملك أندرو، عاهل هنغاريا من ناحية ثانية. وحوالى نهاية عام 1217 قرّر أندرو أن يعود إلى بلاده. ليس من الواضح أن هيوغ كان ينوي الانسحاب من الحملة في وقت من الأوقات، إلا أنه رافق أندرو حتى طرابلس، وهناك توفي في بداية عام 1218.

حيال هذه الخلفية الدبلوماسية من إعادة ضبط التحالفات والعلاقات المتوترة بين مملكتي قبرص والقدس، برز نجم آل إيبيلين في قبرص. وبوسعنا أن نتأكد أن العائلة لا تعد بين أوائل المستوطنين في التسعينات من القرن الثاني عشر؛ ثم إننا نعلم أن هيوغ الأول وزوجته كانا على صلة وثيقة بجون إيبيلين، لورد بيروت، وبشقيقه فيليب؛ كذلك نعلم أن الأخوين تقدما في سبتمبر عام 1217 جميع الاقطاعيين الموالين حين ذكر اسماهما لأول مرة في وثيقة باقية صادرة عن محكمة قبرص العليا. وفي أكتوبر سجلا بين المشاركين في الحملة الافتتاحية للحملة الصليبية الخامسة بطريقة لا تترك شكاً أنهما كانا في الفرقة القبرصية.

وللمعاصرين، كما للباحثين في الوقت الحاضر، كان الأمبراطور فريدريك شخصية مثيرة للجدل. ومهما كانت النظرة إلى عهده بوجه عام، فإن لمؤرخ حديث كلمات توجز على أفضل وجه تدخله في الشرق اللاتيني:

«في حملته الصليبية وفي علاقاته مع مملكتي قبرص والقدس، يواجه

المرء برجل كان ذا إرادة قوية، قادراً على القيام بأعمال اعتباطية لا رحمة فيها؛ على أنه مدفوع بأفكار محافظة، مصمم على التمتع بما يعتبره حقوقاً ملكية أو أمبراطورية راسخة...».

حمل فريدريك الصليب عام 1215. كان المتوقع له أن يشارك في الحملة الصليبية الخامسة، إلا أنه أجل ذلك مرات عديدة، وبعد استسلام الجيش المسيحي وسقوط دمياط عام 1221، وضع مشاريعه على الرف. وفي عام 1225 عاد فجددّ نذره ونظم حملة حدّد انطلاقها في خريف عام 1227. ولكنه انقلب في اللحظة الأخيرة، ولم يبحر إلا في مايو عام 1228. على أن اهتمامه بقبرص كان في هذا العام قد أصبح، إلى حد كبير، دون اهتمامه بمملكة القدس؛ ومردّ ذلك إلى أنه آنذاك كان ذا حق في السلطة في قبرص، إلا أنه كان والد وارث العرش في قبرص. وفي عام 1225 تزوج من إيزابيلا الثانية، ابنة جون بريين، وملكة القدس. وفي العام التالي بعث بأحد أخلص ضباطه الإيطاليين إلى عكا ليكون مسؤولاً بالنيابة عنه. وقبيل موعد سفره إلى الشرق بوقت قصير، توفيت الملكة بعد أن وضعت طفلاً ذكراً سمي كونراد.

في عام 1196 كان هنري السادس، والد فريدريك، قد جعل من قبرص مملكة تحت سيطرته، غير أن الاضطراب الذي ساد ألمانيا وإيطاليا خلال العقدين اللذين أعقبا وفاته، حال دون تفكير فريدريك في التأكيد على حقوقه في الجزيرة قبل العشرينات من القرن الثالث عشر. وكسيدٍ، أمر فريدريك بأن الوصاية اللازمة أثناء قصور هنري ينبغي أن تكون له، وأن الملك والمقطعين ملزمون بالولاء له. وأن المكسب الناجم عن الدخل الملكي أثناء فترة القصور يجب أن يعود إليه. على أن مطالبته بالوصاية

أثارت مشكلات ناشئة عن الخلاف بين عادات الأمبراطورية الغربية وعادات الشرق اللاتيني. في الغرب مألوف للأمبراطور أن يمارس حراسة أراضي الوريث القاصر، أما في الشرق فالذي يمارس مثل هذا الحق هو النسيب من الدرجة الثانية. وفي عامي 1205 و1218، تسلم أقارب الملك الصغير المسؤولية من دون العودة، على ما هو معروف، إلى الأمبراطور، غير أن فريدريك كتب في العشرينات من القرن الثالث عشر إلى أليس شامباني يؤكد على حقوقه ويقول لها أنها وصيته بالنيابة عنه وبناء على رغبته. على أنه كان يمكن للسلطات في قبرص أن تتجاهله ما دام بعيداً في أوروبا. ولم تحمل طلباته محمل الجد إلاّ حين ظهر في الشرق على رأس جيش صليبي.

لقد قضى فريدريك على عهد آل إيبيلين في قبرص، لوقت محدد على الأقل، غير أن الأشهر التالية شهدت لحسن حظ جون ومؤيديه تغيراً مفاجئاً في حظوظ الأمبراطور. قبل تحركه باتجاه الشرق بوقت قصير، كان البابا قد حرمه لأنه لم يكن موافقاً على سياسته في إيطاليا، وعلى تأجيل حملته الصليبية عام 1227. وأسفر نبأ حرمه عن انقلاب الكثيرين من كبار أفراد الأوساط اللاتينية في سوريا بمن فيهم بطريرك القدس، عليه. وبرعايته الفرسان التوتونيين أثار حفيظة الداوية والاسبتارية. وبأعماله الصارمة في مجال المصادرة أو الحجز، أثار عداء النبلاء له مما اضطره في حالتين على الأقل إلى التراجع. وجاءت معاهدة فبراير عام 1229 مع سلطان مصر، الملك الكامل، تعيد القدس إلى السيطرة المسيحية، لكنها لم تفعل شيئاً يخفض من عدد مبغضيه المتزايدين.

5

الدفاع عن سوريا في عهد اللاتين

خلال القرن الذي انقضى بين فتح قبرص عام 1191 وسقوط المعاقل الأخيرة في سوريا اللاتينية في عام 1291، كان المألوف أن تنفق الموارد القبرصية في الدفاع عن الممتلكات المسيحية الباقية على اليابسة. لقد سمح ملوك قبرص ببذل ثروة جزيرتهم المادية وقدرتها العسكرية لاستعادة الأماكن المقدسة وحماية الأراضي الواقعة تحت الحكم المسيحي. كانت مصلحتهم تفرض أن يردوا هجمات المسلمين، ولا سيما أنهم كانوا على مدى فترات طويلة معتبرين ذوي سلطة سياسية في ما تبقى من مملكة القدس. الواقع أن سياستي قبرص والقدس كانتا متداخلتين متشابكتين في القرن الثالث عشر بحيث يستحيل على المؤرخ أن يعالج سياسة أي من المملكتين على حدة.

وبالنسبة إلى رجال الحملات الصليبية، أو الحجاج أو التجار الذين يسافرون بحراً إلى الأرض المقدسة، كانت قبرص محطة توقف طبيعية؛ وسرعان ما بات معلوماً أن الجزيرة هي مرسى مناسب للصليبيين للتزود بالمؤونة، وللتجمع أو التلاقي، ولإعادة التجهيز، لا بل للتشاور مع قادة اللاتين في سوريا بخصوص استراتيجية الحملة المقبلة. والحقيقة أن

قبرص استخدمت أثناء الحملات الصليبية إلى الشرق أقل مما هو متوقع. البابا أونوريوس الثالث أراد للمساهمين في الحملة الصليبية الخامسة أن يجتمعوا فيها في عام 1217؛ ثم إن عدداً من الأشخاص البارزين في الشرق كانوا في عام 1237 ينصحون ثيبو النافاري بأن لا يتجاوز ليماسول حيث سيلتقونه لبحث المخططات للحملة التي يقود. غير أنه لم يجر تبني أي من الاقتراحين؛ وفي كلتا الحالتين عقد الصليبيون والمسيحيون الذين كانوا يستقرون في الشرق لقاءاتهم للتباحث في عكا. وبالمقارنة مع ذلك، إن الشخصيات الشرقية البارزة المجتمعة في ليماسول، عام 1227، بغية ملاقاة الأمبراطور فريدريك الثاني، اكتشفت أن إبحاره تأجل حتى العام التالي. وهنالك صليبيون آخرون، كاللورد إدوارد وأتباعه، على سبيل المثال، توقفوا في قبرص عام 1271، غير أن القديس لويس، أو لويس التاسع الفرنسي، هو الذي استغل وضع الجزيرة الإستراتيجي إلى أقصى حد أثناء أولى حملتيه الصليبيتين. عند وصول الملك الفرنسي إلى قبرص في سبتمبر عام 1248، كان ضباطه قد جمعوا مقادير كبيرة من المؤونة في الجزيرة. وخيم جيشه بجوار ليماسول، حيث بقي أكثر من ثمانية أشهر، ثم انضم إليه الذين كانوا قد تشردوا من جنود الحملة، وفريق من إمارة آخيا الفرنجية. ورحب الملك هنري ونبلاؤه البارزون بالصليبيين ترحيباً حاراً. وقام سيد الداوية، ومعاون سيد الإسبتارية وبعض الفرسان اللاتين في سوريا بزيارة هذا المجمع؛ وتم الاتفاق بينهم على مهاجمة مصر. وأثناء إقامة لويس في قبرص، ارتفعت آمال المسيحيين بفعل الاتصالات الدبلوماسية مع المغول؛ غير أن الأثر الإيجابي لذلك في المعنويات انخفض حيال الوباء الذي قضى على عدد من الصليبيين، بمن فيهم عدد من النبلاء، قبل أن

يبحر الجيش في حملته المشؤومة إلى دمياط في نهاية أيار. ثم كانت ذكريات الوفيات هي التي دفعت ببعض الإعلاميين في وقت لاحق إلى تثبيط همم الصليبيين في المستقبل كي لا يستخدموا قبرص محطة للتجمع والهجوم.

وأسهم الفرسان القبارصة في الحملات الصليبية في عدد من المناسبات. ففي عام 1197 جاء الملك إيمري بقواته للانضمام إلى الصليبيين الألمان في عملية الاستيلاء على بيروت. وفي عام 1217 قاد هيوغ الأول فرقة قبرصية إلى عكا للمشاركة في المرحلة البدائية من الحملة الصليبية الخامسة. وفي عام 1219، نجد فرساناً قبارصة يشاركون في حصار دمياط، ولو بدون تميز. وفي عام 1228 يبدو أنهم كانوا يترقبون الانضمام إلى حملة فريدريك الثاني الصليبية، مع أن الظروف التي رافقوه فيها في النهاية عكست قدرة الأمبراطور على إرغامهم على طاعته أكثر مما عكست استعداداً من جانبهم لمساعدته في الحملة. وفي عام 1239 كان في حملة ثيبو النافاري الصليبية عدد من القبارصة؛ وفي عام 1249 أخذ الملك هنري جنوده إلى مصر إلى جانب سانت لويس. وفي هذه المناسبة الأخيرة عاد الملك نفسه إلى قبرص بعد وقت قصير من احتلال دمياط، تاركاً وراءه 120 فارساً بقيادة وكيله الإقطاعي والمسؤول الأمني، الأخوين بولدوين وغي إيبيلين. ولئن شارك القبارصة بصورة عامة في الحملات الصليبية حين يكون الصليبيون في الشرق، فالواقع أنه ذكر لنا بوضوح مرتين فقط قبل عام 1291، مرة قبل المباشرة بالحملة الصليبية الخامسة، ثم في حملة لويس التاسع الصليبية، أنهم نذروا القيام بحملات صليبية، وبذلك صاروا صليبيين بالمعنى الدقيق للكلمة. وفي أية حال لا شك في أنهم قبلوا

بأنهم مشاركون في واجب المسيحيين في الدفاع عن الأرض المقدسة؛ وبناء على ما قاله فيليب نوفارا، فإن جون البيروتي قال عام 1228 لفريدريك الثاني إن القبارصة يلحقون به إلى سوريا «في خدمة الله»؛ وفي وقت آخر بعد ذلك بكثير، استخدم جايمس إيبيلين عبارة مشابهة حين ذكر تورطهم في حملة ثيبو النافاري الصليبية كما في حملة القديس لويس الصليبية.

خلال القرن الأول من الحكم اللاتيني في قبرص، حدث عدد من الحملات الصليبية إلى الشرق؛ غير أن غالبية هذه الحملات كانت قصيرة نسبياً؛ ثم إنها كانت متباعدة في حالات كثيرة. والواقع أنه بعد أن غادر سانت لويس الشرق عام 1254، لم تقع غير حملة صليبية واحدة ذات أهمية على سوريا قبل النهاية في عام 1291. وهكذا فقد كانت هنالك فترات طويلة كان للعون القبرصي في الدفاع عن الممالك اللاتينية في سوريا أن يتخذ فيها بالضرورة أشكالاً بديلة. وبين الحين والآخر كان الحكام يبعثون بفرق للانضمام إلى حملات عسكرية أخرى في سوريا أو فلسطين، وكانوا، لا سيما أثناء سيطرة آل لوزينيان على عكا، يقدمون مواردهم القبرصية بالإضافة إلى نفوذهم السياسي. يضاف إلى ذلك أن هنالك مؤسسات وأفراداً في سوريا اللاتينية يملكون عقارات في قبرص، وكانوا بالتالي يستخدمون مداخيلهم لتعزيز موقفهم في اليابسة.

إن لائحة المؤسسات الدينية التي كانت في سوريا في عهد اللاتين قادرة على زيادة هباتها باكتساب الأملاك في الجزيرة، هي طويلة. وعلى سبيل المثال، هنالك قديسون أوغسطينيون من تمبلوم دوميني/ Templum Domini كانوا يملكون ممتلكات في نيقوسيا وفي مستوطنة ريفية لم تسم بين عامي 1195 و1233. وفي عام 1197 قدّم

الملك إيمري مكاناً باسم ليفادي من أمكنته العديدة في قبرص إلى رئيس الأساقفة جوسيوس الصوري كملك شخصي، مكافأة له، على ما يعتقد، لخدماته في ترتيب زواج ملكة القدس إيزابيلا في ذلك العام نفسه، على أن تعود تلك الأرض عند وفاة جوسيوس إلى ابن أخيه ثم إلى كنيسة صور؛ ثم إن إيمري أمر بعد ذلك ان لا تجبى أية ضريبة جمركية عن أي محصول منها ينقل إلى اليابسة. وفي النهاية بيع هذا العقار في عام 1222، إلى رئيس أساقفة نيقوسيا.

كذلك كانت لبطريرك القدس اللاتيني ولكهنة القبر المقدس أملاك في قبرص. في عام 1201 وهبوا بنداسينو، وفي عام 1210، وهبوا مكاناً لم يسم في أبرشية باقوس، أطلق عليه اسم لاكريدون. وفي عام 1290 أعفى البابا نيقولا الرابع القبر المقدس من دفع العشور على أملاكه في الجزيرة إلى الأساقفة المحليين لمدة خمسة أعوام. والإيجارات في قبرص، والممتلكات في بافوس ونيقوسيا كانت ملكاً لدير القديسة ماري ولجميع القديسين في عكا. ثم في الستينات من القرن الثالث عشر صارت لسانت لازاروس البياني بأولوية مشروطة في قبرص.

وبالنسبة إلى بطريركية إنطاكية، تدخلت البابوية لتأمين المال من الموارد القبرصية لأغراض الدفاع. وفي عام 1254 عهد البابا أنوسنت الرابع بإدارة رئيس أسقفية نيقوسيا إلى البطريرك أوبيزيو دي فيشي بحيث يمكن لمداخيلها أن تعوض عليه الأضرار التي أنزلها التركمان ببطريركيته. والظاهر أن هذا الأمر بقي حرفاً ميتاً لأن هيوغ رئيس أساقفة نيقوسيا الذي سبق له أن تخلى عن منصبه، رجع إليه في غضون ذلك. وبعد أشهر قليلة أصدر البابا أمراً بفرض عشر المداخيل الكنسية في قبرص وأنطاكية، على مدى ثلاثة أعوام، لسد نفقات تحصينات قلعة

قصير العائدة إلى البطريرك، بجوار أنطاكية؛ كذلك أصدر تعليمات بوجوب إعطاء البطريرك حماية أبرشية أخرى في البطريركية أو في قبرص من أجل زيادة دخله. وفي عام 1256 عهد البابا ألكسندر الرابع إلى أوبيزيو بإدارة أبرشية ليماسول التي كانت قد شغرت قبل وقت وجيز؛ وظل البطريرك يتمتع بمداخيلها حتى عام 1280، بعد سقوط أنطاكية عام 1268 والقصير عام 1275 بزمن طويل، حين صار يزوّد بالدخل من أوروبا الغربية.

ثم إن المؤسسات الدينية الأخرى كانت لها موجودات في قبرص مستخدمة للدفاع عن الممالك اللاتينية في سوريا في المنظمات العسكرية. كانت لكلٍ من الداوية والإسبتارية، على التوالي، قلعة في غستريا إلى الشمال من فمغوستا، وفي كولوسي بجوار ليماسول. ولقد استولت المنظمتان على القلعتين قبل العام 1210، لكنه لم تكن لأي منهما أية أهمية عسكرية كبيرة؛ ولذلك ينبغي أن ينظر إليهما باعتبارهما مركزين إداريين لا كمعقلين دفاعيين. كذلك كان للإسبتارية برج في ليماسول؛ ثم إن مقرهم في نيقوسيا كان، على ما هو واضح، صالحاً للدفاع عنه، بينما كان مقر الداوية في ليماسول قد حصّن على ما يبدو. وكذلك كانت هنالك تحصينات ثانوية في ممتلكات الداوية في بيرماسويا وخيروكيتيا. وبعد القضاء على الداوية، انتقلت غالبية ممتلكاتهم في قبرص إلى الإسبتارية.

ولئن كان يرجح أن غالبية العقارات التي ذكرها الكتّاب المتأخرون بأنها ملك للإسبتارية كانت بالفعل ملكاً لهذه المنظمة أو لتلك، قبل عام 1291، فليس يمكن دائماً أن نتأكد من حقيقة ما كانت تملكه كل منظمة

بالضبط. هنالك مواقع معروفة بالتحديد ملكها الإسبتارية هي بلاتانسكيا، وكولوسي، وموناغرولي، وفينيكاس، وبليخوري، وكيلاكي، وتراخوني، قبل عام 1291، بالإضافة إلى ممتلكات في نيقوسيا وليماسول، ومورا شرقي نيقوسيا، أما عقارات الداوية فشملت خيروكيتيا، وبيرماسويا، وفاسوري، وبسيمولوفو، وغستريا، وتمبلوس على ما يرجح، بالإضافة إلى منازل في نيقوسيا وبافوس وفمغوستا وليماسول. اللائحتان بعيدتان عن أن تكونا كاملتين. ثم إن الدخل الفائض من هذه العقارات كان يستخدم في توسيع نشاطات هاتين المنظمتين في سوريا. والخلل الوحيد في هذا النمط وقع عام 1279 حين صادر الملك هيوغ الثالث ممتلكات الداوية ودمر منازلهم في ليماسول، وفي أمكنة أخرى، انتقاماً من سيدهم الذي دعم منافسه شارل أنجو، على عرش القدس. ويقال إن الممتلكات ظلت محتجزة حتى عام 1282؛ على ان الاستياء بين هذه المنظمة وسلالة لوزينيان امتد إلى ما بعد ذلك بوقت طويل.

وبين المنظمات العسكرية الأخرى، لم يكن لفرسان التوتون أبداً أية ممتلكات واسعة في الجزيرة؛ ومردّ ذلك، بالدرجة الأولى، على ما يعتقد، إلى عدم شعبية راعيهم فريدريك الثاني: وهنالك أيضاً منظمة أقل أهمية هي منظمة القديس توما كنتربوري الإنكليزية التي ملكت عقارات بجوار ليماسول وكنيسة مكرّسة لسانت نيقولا في نيقوسيا؛ وبقيت لهذه المنظمة مؤسسة في عكا حتى عام 1291، والمرجح أن هذه الممتلكات في قبرص أسهمت في تأمين حاجات المنظمة. لكن إسهام هذه المنظمة في الدفاع عن الشرق اللاتيني ظل في أية حال، ضئيلاً.

وهنالك عدد من النبلاء المهمين من ذوي المصالح الرئيسية كانوا

يملكون إقطاعات في قبرص. القانوني الشهير، جون إيبيلين، الذي كان كونتاً على يافا من أواسط الأربعينات في القرن الثالث عشر حتى وفاته عام 1266. كان يملك عقارات قيمة في قبرص بينها بيرسنتيرونا في مورنو وأبيسكوبي. ثم إن نسيبيه باليان إيبيلين، سيد بيروت، الذي توفي عام 1247، وجون سيد قيساريا الذي توفي حوالى 1240، ملكا كذلك ممتلكات في قبرص. وكان لأودو مونتبيليارد، المسؤول الأمني في القدس، ثم للورد طبريا، عند وفاته عام 1244، عقار في ترشيش في أبرشية بافوس.

وفي الثلاثينات من القرن الثالث عشر أقرّ الملك هنري الأول تسويات عقارية سخية لزوجي شقيقتيه ولتر برين الذي ظل حامياً ليافا حتى أسره في المعركة مع المسلمين في سنة 1244، وهنري الأنطاكي، المتوفى عام 1276، وهو الشقيق الأصغر لبوهمند الخامس، أمير أنطاكية وطرابلس. ولا ريب أن هؤلاء الرجال جميعاً استخدموا، على الأقل جزءاً من مداخيلهم القبرصية لدعم مواقعهم في سوريا، سائرين بذلك على خطى سيد بيروت الكبير الذي قال لفريدريك الثاني عام 1228 أنه كان يستخدم مداخيله القبرصية لإعادة تحصين ممتلكاته على اليابسة.

وهنالك أيضاً رجال دون هؤلاء كانوا يملكون إقطاعات في المملكتين. جفري الثوري، وهو فرد في عائلة مقدسية معروفة من الفرسان، ولد في سوريا، لكنه استقر في قبرص، حيث تلقى إقطاعة كبيرة من الملك هنري. مكافأة له، لدوره في الحرب الأهلية 1229 ـ 1233. وهنالك فارس آخر من أصل لاتيني سوري، يدعى بولدوين بون فوازان، تلقى، إقطاعته في كيليكيا في الوقت نفسه تقريباً. إلا أن

بعض الفرسان من ناحية ثانية ممن قاوموا آل إيبيلين في الحرب الأهلية، وكانت لهم إقطاعات في اليابسة، عادوا إليها بعد هزيمتهم وتجريدهم من أملاكهم في أوائل الثلاثينات من القرن الثالث عشر. ويذكر فيليب نوفارا مثالاً على فارس لم يتلقَ إقطاعته في مملكة القدس إلا بعد وقت من بروزه في قبرص.

إن المدى الذي كان البارونات في سوريا في العهد اللاتيني ممن كانوا يملكون إقطاعات في قبرص، يستطيعون استخدام الرجال والأموال من الجزيرة في الدفاع عن مراكزهم في اليابسة، هو صغير بالنسبة إلى الإسهام الذي كانت سلالة لوزينيان قادرة على تقديمه للحفاظ على ما تبقى من الأراضي التي يحكمها المسيحيون في سوريا وفلسطين. لقد سبق لنا أن ذكرنا استخدام الملك إيمري لجنوده القبارصة لحماية يافا عام 1197، وللقيام بغزوة بحرية على مصر عام 1204. وهنالك أمثلة أخرى في النصف الأول من القرن الثالث عشر على ملوك وجهوا قواتهم إلى اليابسة؛ ومنها حملة 1214 حين انضم القبارصة إلى تظاهرة عسكرية مسيحية مشتركة باتجاه حماه وحمص؛ ثم حملة 1235 حين ساعدت قوة من مائة فارس قبرصي الإسبتارية في هجومهم على «برعين»/ مونتفران. على أن غالبية المساعدة القبرصية للفرنجة في سوريا، جرت في فترات كان فيها حاكم قبرص هو نفسه حاكم مملكة القدس اللاتينية، وبصورة خاصة، حيث كان حامياً لعكا. لقد كان الملك إيمري حاكماً على قبرص كما كان، بفضل حق زوجته يحكم القدس بين 1197 و1205؛ وفي عام 1269 أصبح أحد أحفاده هيوغ الثالث ملكاً على القدس كحق له بعد انتهاء سلالة هوهنشتاوفن في السنة السابقة؛ بعد ذلك صار هو وورثته ينظرون إلى أنفسهم كملوك على المملكتين. ثم سمح هيوغ لعكا، المدينة

الرئيسية الوحيدة الباقية للمملكة، أن تفلت من يديه في عام 1276 ـ 1277، لكن ابنه هنري الثاني استعادها سنة 1286 واحتفظ بها حتى احتلالها من قبل المماليك عام 1291.

عادت القوات القبرصية إلى العمل عام 1249 ـ 1250 حين أسهمت فرقة في حملة سانت لويس إلى دمياط، وفي عام 1252 حين جاء هنري بالعون إلى لويس في سوريا. وفي السنوات 1250 ـ 1254، عزز الملك الفرنسي تحصينات عكا، وقيسارية، ويافا، وصيدا، ثم، قبل عودته إلى أوروبا، وضع حامية فرنسية دائمة في عكا.

وليس من الصعب أن نرى سبب استعداد أليس شامباني وهنري في قبرص للتورط في سياسة سوريا اللاتينية. في أوائل الأربعينات من القرن الثالث عشر كانت حظوظ مملكة القدس، رغم الأخطار من الأيوبيين والخوارزميين، والمغول الأكثر منهم بعداً، جيدة، شأنها في ذلك كما كانت في أي وقت في القرن الثالث عشر. من الناحية الإقليمية، وبفضل التنازلات التي حصل عليها من الحكام المسلمين المجاورين فريدريك الثاني في عام 1229 وثيبو نافار وريتشارد كورنوول في 1240 ـ 1241، كانت المملكة أوسع منها في أي وقت آخر منذ عام 1187، كذلك كانت بالغة الثراء. وبحسب ماثيو باريس، كان الداوية والإسبتارية قد ذكروا لريتشارد كورنوول حين كان في الشرق أن مداخيل عكا الملكية بلغت 50000 جنيه فضي سنوياً؛ أي بكلام آخر، أكثر من مداخيل ملك إنكلترا العادية آنذاك، وغالبية هذا الدخل ناجمة عن ضرائب على التجارة. وكانت عكا، ثم صور والمدن الساحلية الأخرى في الأيدي المسيحية، ولو إلى حد أدنى، تجذب أعداداً كبيرة من التجار الغربيين، الإيطاليين في الغالب، ثم إنها أثرت كذلك باعتبارها

محطات على الطرق التجارية التي تربط أوروبا بالشرق على أن الوضع المسيحي في الشرق بدأ بالضبط في فترة 1242 ـ 1253، عهد وصايتي أليس وهنري، يتجه نحو الأسوأ؛ عام 1244 شهد فقد المسيحيين للقدس نهائياً، وهزيمة كبرى في معركة لافوربي.

وفي عام 1247 استعاد المسلمون طبريا وعسقلان. وفي السنة السابقة كان ملك أرمينيا الكيليكية وأمير أنطاكية قد اعترفا بسيادة المغول.

وفي عام 1250 خلعت القيادة العسكرية العليا في مصر سلالة الأيوبيين واستهلت ما عُرف في ما بعد بعهد سلطنة المماليك. ولئن كان الحكام المماليك في البداية يمثلون خطراً على المسيحيين أقل من خطر أسلافهم الأيوبيين فإنهم هم الذين استطاعوا في خلال فترة تتجاوز الأربعين عاماً بقليل أن يقضوا على الممالك اللاتينية على الساحل السوري.

وعلى مدى بضع سنوات بعد وفاة هنري الأول ترك النبلاء في مملكة القدس لأنفسهم. واستمر جون أرسور، معاون هنري في ممارسة السلطة.

في عام 1256 اندلعت في عكا حرب معروفة بحرب سانت ساباس بين الجمهوريات الإيطالية البحرية. والظاهر في البداية أن غالبية البارونات المدنيين في الشرق، بمن فيهم القيّم، جون أرسور، دعموا الجنويين الذين حققوا بعض النجاحات الأولى. وفي عام 1257 أنزل أهل البندقية بقيادة لورنزو تيبولو خسائر بالسفن الجنوية وحققوا التفوق في القتال في شوارع عكا.

عند هذا المفترق، حاول جون اليافاوي، سيد الداوية، والأمير

بوهمند الأنطاكي، ولهما معاً أسبابهما الخاصة لتفضيل أهل البندقية، أن يفرضا على مختلف المصالح في الشرق اللاتيني أن تعمل بالتعاون معاً لدعم الجانب الذي كان يكسب آنذاك. كانت خطتهما إحياء مبادىء الوصاية السابقة التي أضفت السلطة على أليس شامباني وهنري الأول، لكنها أهملت منذ عام 1253، الفكرة الأساسية بسيطة: تعيين الوريث الأقرب في الشرق للملك هوهنشتاوفن، وصياً، عند وفاة كونراد الخامس، ابنه الطفل، عام 1254، ثم حمل الوصي الجديد على إصدار الأمر إلى المجموعة كي تدعم أهل البندقية.

على أن الوضع ازداد تعقيداً لأن الشخص الذي يعتبر أقرب وريث لكونراد، أي ملك قبرص هيوغ الثاني، هو نفسه قاصر.

وفي فبراير عام 1258، بناء على طلب جون اليافاوي سيد الداوية، جاء بوهمند الأنطاكي بشقيقته بليزانس وابن شقيقته هيوغ الثاني إلى عكا. وفي اجتماع للمحكمة العليا، اعترف بهيوغ رسمياً كوصي على كونراد في مملكة القدس، ثم تم الاتفاق على أن تمارس والدته الوصاية باسمه.

وعبثاً احتجّ الجنويون على هذه التطورات؛ وأصدرت بليزانس أوامرها إلى أهالي عكّا كي يلقوا بثقلهم وراء أهالي البندقية. بعد ذلك انسحبت تاركة القيّم السابق جون أرسور الميال إلى أهل جنوى معاوناً لها. بذلك حقق الحزب المؤيد للبندقية انقلاباً في السياسة بين النبلاء اللاتين في سوريا، ثم نجح هذا التغير حين قضى أهل البندقية في يونيو عام 1258 على أسطول جنوى وفرضوا على الجنويين أن يجلوا عن حيهم في عكا. ورغم ذلك ظلت أعمال القتال بين المدينتين الإيطاليتين تتواصل في الشرق اللاتيني مدى سنوات عديدة بعد ذلك.

وظلت بليزانس وصية على ابنها حتى وفاتها في سبتمبر عام 1261، ولو أنها كانت منذ العام 1258 قد اختفت من واجهة الأحداث، وأعادت تعيين جون أرسور مساعداً لها وهو والد زوجها المستبعد، وفي عام 1259، بعد وفاة جون في أواخر عام 1258، عينت جفري سرجينس الوكيل الإقطاعي في القدس وقائد الحامية الفرنسية في عكا، معاوناً لها خلفاً لجون. هو فرنسي، ولذلك ربما أمكن النظر إلى تعيينه بمثابة تحول عن نمط ممارسة الصلاحية من قبل أفراد عائلة إيبيلين أو أنصارهم أو حلفائهم، وهم الذين حكموا عكا بالفعل منذ الثلاثينات من القرن الثالث عشر. وصحيح، بالتأكيد، أن عائلة إيبيلين كانت بعد تعيين جفري أقل بروزاً إلى حد كبير في الحياة السياسية في عكا مما كانت عليه في الفترة السابقة. لكننا لا نعلم شيئاً عن الظروف التي حصل فيها على منصبه، ولا عن احتمال اعتبار ذلك آنذاك تحولاً ذا أهمية. ولعل جفري لم يكن خيار بليزانس بقدر ما كان خيار شقيقها بوهمند الذي كان، كما جاء في أحد المصادر، مسؤولاً عن تعيين جون أرسور في عام 1258؛ أو لعله خيار عشيقها جون، كونت يافا، وهو نفسه عضو بارز في عائلة إيبيلين آنذاك.

وتزامن تسلم بليزانس للوصاية مع مسلسل من تغيرات مثيرة في البنية السياسية للعالم الإسلامي. في أواخر الخمسينات من القرن الثالث عشر تقدمت الجيوش المغولية إلى الشرق الأدنى، وفي عام 1258 اجتاحت بغداد ودمرت الخلافة العباسية؛ وفي عام 1259 ـ 1260، تغلّبت على القسم الإسلامي من سوريا، محتلة حلب في يناير عام 1260، ودمشق في مارس قبل الزحف جنوباً باتجاه غزة. وتصوّر المسيحيون في الشرق أنهم بدورهم سيتعرضون للغزو المغولي. غير أن

هذه الضربة، إلا ما حدث من هجوم على صيدا في أواخر يوليو أو أوائل أغسطس، عام 1260، لم تقع. وبدلاً من ذلك انسحبت القوات الرئيسية شرقاً حين علمت بوفاة الخان الأعظم، تاركة وراءها قوة أصغر منها بكثير بقيادة القائد كتبغا الذي كانت مهمته الأولى، حراسة فتوحاتهم القائمة.

الأنظمة الأيوبية في سوريا سحقت، أما الفرنجة فسلموا في الغالب. بعد ذلك عمدت السلطنة المملوكية التي كانت قد قامت في مصر قبل عشر سنوات، إلى الهجوم على كتبغا. وفي أغسطس، قاد السلطان قطز منتفعاً بحياد الفرنجة الذين سمحوا له بالمرور عبر أراضيهم وزودوه بالمؤونة، قواته إلى سوريا. وفي سبتمبر هزم قائد المغول في معركة عين جالوت؛ وهذا النصر ثم ما أعقبه من نصر لاحق في حمص بعد ثلاثة أشهر، سمحا للمماليك بأن يستولوا على داخلية سوريا، وبالتالي تطويق الممالك المسيحية.

في البداية أمل الفرنجة، أن يتمكنوا من الانتفاع بهذه الأحداث لتحقيق مكاسبهم في سوريا. ومن الثابت أنهم لم يستطيعوا أن يروا أن المماليك الذين كان تاريخهم السابق تاريخ انقلابات واضطراب سياسي، سيجدون في سلطانهم الجديد بيبرس قائداً مقتدراً يبقى صاحب السلطة حتى وفاته عام 1277. كذلك لم يروا أن المغول الذين عانوا هذه الانتكاسات على أيدي المماليك، سيكونون عاجزين عن الثأر، رغم محاولتهم ذلك. والذي حدث بين عامي 1263 و1272 هو أن السلطان بيبرس الذي خشي تحالفاً مسيحياً مغولياً وحملات صليبية جديدة من الغرب، قام بعمل رادع أخضع فيه الممالك اللاتينية في الشرق، وجعلها عاجزة عن القيام بأي عمل.

ولعله من المدهش، على الرغم من الرعب في عكا عام 1260 حين كان يخشى من غزو مغولي وشيك، وعلى الرغم من أن المسيحيين عمدوا في أعقاب الهزيمة المغولية، في وقت لاحق من ذلك العام إلى مناشدة الغرب لتقديم مساعدة عسكرية لإعادة احتلال الأراضي السورية، أنه لا سجل لدينا عن قوات قبرصية مرسلة آنذاك إلى اليابسة. ومن المدهش أيضاً أنه بعد وفاة بليزانس عام 1261 لم يتقدم أي فرد من العائلة القبرصية المالكة بالمطالبة بالوصاية على القدس باسم هيوغ الثاني، على مدى سنتين كاملتين. وفي أبريل عام 1263 قاد بيبرس هجومه الأول على عكا، وبذلك أنهى الهدنة التي كانت قائمة من قبل. واضح أنه لم يكن ينوي حصاراً محكماً، ولو أن المماليك نجحوا في نشر الذعر والتسبب بالدمار؛ وفي المناوشات التي جرت خارج المدينة هزم المسيحيون.

في عام 1263 كان بيبرس قد أذاق المسيحيين طعم ما هو مخبأ لهم. وفي السنة التالية شغل في مكان آخر، ثم بدأت فتوحاته بعد ذلك تنحو منحى جاداً. ففي عام 1265 استولى على قيسارية وأرسوور ودمّر حيفا. وفي عام 1266 كان دور حصن الداوية الهام في صفد في الخليل، ثم قلعتي طورون وشاستيل نيف أبعد إلى الشمال. وفي السنتين معاً حدثت غزوات مدمرة بجوار عكا مما كان له تأثير منع المسيحيين من إرسال طوابير النجدة.

ولأول مرة منذ الأربعينات في القرن الثالث عشر كانت القدس تتكبد خسائر إقليمية خطيرة؛ آنذاك كانت ردة فعل هيوغ الأنطاكي اللوزينياني أن قام بشيء لم يقم به أي حاكم في قبرص منذ الخمسينات

في القرن الثالث عشر، وهو نشر قواته العسكرية القبرصية في اليابسة.

وفي 29 أكتوبر عام 1268 أعدم في نابولي كونراد الخامس آخر سليل شرعي لفريدريك الثاني والملكة إيزابيلا في القدس. وبانتهاء سلالة هوهنشتاوفن كملوك للقدس، اعتلى العرش هيوغ الثالث الذي كان الاعتراف به كوصي في مايو عام 1268 قد أكد أنه الوريث. وفي كاتدرائية صور توج في سبتمبر عام 1269. وأصبح هيوغ ملكاً على قبرص والقدس معاً. وقد عنى تسلمه العرش أنه منذ العشرينات في القرن الثالث عشر ومنذ عهد جون بريين، بات لأول مرة لمملكة القدس ملك مقيم. غير أن الإرث الذي تسلمه كان، في أقل ما يقال عنه، صعباً. فقد أدى انعدام القيادة القوية وضغوط الحرب إلى لجوء البارونات والمنظمات العسكرية إلى إقامة علاقات فردية خاصة بالمسلمين؛ كانوا يعقدون الهدنات أو يلغونها مستقلين عن الحكومة في عكا. وبذلك قطعت المملكة شوطاً طويلاً نحو تجزئة القيادات التي تشكلها. وهنالك بُعد آخر لهذا التمزق في نسيج المملكة هو ما فعله الإيطاليون. منذ عام 1258 كان أهالي البندقية قد منعوا خصومهم من دخول عكا، وكان الجنويون قد حالوا دون دخول خصومهم إلى صور، ثم إن النزاع بينهم كثيراً ما أربك الحياة التجارية والسياسية في الشرق. هنا حاول هيوغ الثالث إحياء السلطة الملكية. لا ريب أنه كان رجلاً مقتدراً؛ ثم إن حكمه لم يكن بدون نجاحاته، إلا أنه تعذر عليه أن يكون ملكاً على المملكة بكمالها، لا «ملكاً على عكا» فقط، كما وصفه الكتّاب المسلمون.

وكان حجر الزاوية في سياسة هيوغ قائماً، على العلاقات الوثيقة مع عائلة مونتفور في صور. وكان فيليب مونتفور قد استلم صور من هنري

الأول عام 1246، لكن مكانته القانونية هناك كانت ضعيفة. ورغم ذلك كان آل مونتفور عائلة قوية، كما كانت صور مدينة ذات أهمية. ولم يكن هيوغ مستعداً للتنازل عن حق الإقامة كملك. ولو أنه كان يعلم أنه ليس قوياً إلى حد كاف لطرد آل مونتفور، وإدخال صور في مملكته مجدداً. ومن قبل أن أصبح ملكاً كانت هنالك، مخططات جارية لتزويج جون مونتفور، ابن فيليب من مرغريت شقيقة هيوغ. وفور استلام هيوغ للعرش تم التوصل إلى اتفاق: مرغريت تتزوج من جون، فيما منح الملك مدينة صور إلى جون كإقطاعة له ولأبنائه من مرغريت. وبدوره سلّم فيليب ابنه سيطرته على صور. وكانت لهذه التسوية مع آل مونتفور فائدتها لهيوغ في المستقبل.

بيد أنه من الجدير أن نذكر أن جون مونتفور عقد في عام 1271 هدنته الخاصة مع بيبرس لتشمل صور ممهداً بذلك السبيل إلى هدنة هيوغ الثالث في العام التالي مما شمل الأراضي المحيطة بعكا. كذلك عمل هيوغ للتأكيد على سلطته في الإقطاعات الأخرى في مملكته. فجعل عطاءات أرسور للإسبتارية وصيدا للداوية قانونية شرعية، وهي التي كانت غير مصدقة إذ كانت قد تمت قبل أن يتسلم العرش. غير أنه حين حاول أن ينفذ سلطته على بيروت عام 1275، وجد نفسه يصطدم بصعوبات. لقد تدخل بيبرس ليمنعه من ذلك زاعماً أن شروط معاهدته مع صاحبة بيروت تجعل من هذه الإقطاعة تحت حمايته.

وكان بيبرس، بعد النجاحات التي حققها بالاستيلاء على يافا، وبوفور (الشقيف) وأنطاكية، عام 1268، على استعداد للمهادنة، كان تاريخ السنتين التاليتين تاريخ غزوات، وغزوات مضادة، ومفاوضات؛ كان السلطان يخشى أن تأتي حملة سانت لويس الصليبية إلى الشرق، وأن

يقوم تحالف فرنجي ـ مغولي ضده. إلا أن الصليبيين الذين وصلوا بالنهاية هم فرقة بقيادة الأبناء غير الشرعيين لملك أراغون، جايمس الأول، عام 1269، وأخرى بقيادة اللورد أدوارد (الذي سرعان ما أصبح أدوارد الأول، ملك إنكلترا) سنة 1271. والواقع أن المغول قاموا بهجوم على أراضي المماليك، تزامن مع وجود أدوارد في الشرق، غير أنه لم يقم أي تعاون فاعل بين المغول والمسيحيين. ثم إن تحول حملة لويس إلى تونس سنة 1270 ترك بيبرس طليق اليدين كي يستأنف فتوحاته. عند ذاك وجه اهتمامه إلى كونتية طرابلس.

وفي عام 1271 استولى أولاً على قلعة الداوية البيضاء (صافيتا)، ثم على قلعة الإسبتارية المجاورة، قلعة الحصن الشهيرة، فعلى قلعة «جبل قار» لكونت طرابلس، أخيراً. بعد ذلك اتجه إلى الجنوب، وفي يونيو عام 1271، استولى على قلعة مونتفور المقر الرئيسي للفرسان التوتونيين في الشرق، وبذلك كشف الممرات الشمالية الشرقية إلى عكا. بعد ذلك، وعلى الفور، ومن أجل إبعاد اهتمام هنري عن اليابسة السورية، وجه بيبرس حملة بحرية على قبرص. وتلك كانت محاولة بيبرس الوحيدة لغزو الجزيرة؛ وقد انتهت بكارثة حين تحطمت غالبية السفن الإسلامية بجوار ليماسول. ثم أن اللورد ادوارد كان قد وصل إلى عكا قبل ذلك بوقت غير طويل. وفي أواخر عام 1271 قام هو وهيوغ ببعض عمليات الغزو، وأبرزها مهاجمة قلعة قاقون. وفي أوائل عام 1272 عقد بيبرس هدنة وبعد ذلك بقيت عكا مسالمة للمماليك حتى وقت قصير من الكارثة النهائية عام 1291.

في عامي 1265 ـ 1266 كان هيوغ الثالث قد جاء بقوات قبرصية إلى

عكا. وبين تسلمه العرش في نهاية عام 1267، والعام 1271، فعل مثل ذلك في مناسبتين أخريين، في عام 1268، على ما يرجح، حين اعترف به وصياً، وفي عام 1269، حين تسلّم عرش القدس. وفي عام 1271 عاد فاستدعى الفرسان القبارصة مرة أخرى، إلاّ أنهم رفضوا الانصياع له هذه المرة بحجة أنه ليس للملك أي حق في فرض الخدمة العسكرية عليهم خارج قبرص نفسها. والظاهر أن النزاع بلغ ذروته في يوليو. لقد ذعر الفرسان لفشل الحملة البحرية قبل أسابيع قليلة، وكأنهم رأوا أنهم باتوا يدعون للقتال في البر مرات كثيرة في هذه السنوات الأخيرة. ومن شأن هذا الحدث أن يقدّم لنا دليلاً لا يخطىء على أن الفرسان القبارصة لم يكونوا يشاركون هيوغ آماله، مهما بلغت قوتها، في الدفاع عما تبقى من مملكته في اليابسة. ثم دعي اللورد أدوارد للتحكيم، لكنه لا يعرف هل كان القصد من تدخله أن يكون ملزماً بصورة دائمة، أم أنه كان تدبيراً مؤقتاً لهذا العام.

إن الإفادات التي قدمت له من قبل هيوغ، من ناحية، ثم من قبل جايمس إيبيلين، الناطق باسم الفرسان، من ناحية ثانية، حفظت لنا، وفيها زعم هيوغ أن النظرية والمثال السابق يؤيدانه، ثم أورد المناسبات التي استجاب فيها الفرسان في الماضي للخدمة خارج قبرص. وحاول جايمس، ابن القانوني الشهير جون، كونت يافا، أن يفند تأكيداته بنداً بنداً مع أن الكثير من حججه كان هزيلاً، وهذا زعم شديد الإيحاء بصورة خاصة، وهو كما قال هيوغ، إن والد جايمس نفسه وفيليب مونتفور هما اللذان حثّا هنري الأول على اللجوء إلى الحق الإقطاعي لحمل الفرسان القبارصة على المشاركة في حملة سانت لويس إلى دمياط، عام 1249. وبصفتهما مقطعين قبرصيين بارزين لهما إقطاعات على

اليابسة، كانت لهما مصالح واضحة في دفع الملك إلى قيادة جيشه خارج الجزيرة. أما في السبعينات من القرن الثالث عشر فكان العديد من هذه الإقطاعات قد فقد. ومع خفض بيبرس للممالك المسيحية، كان عدد القبارصة الذين يحبون الدفاع عما بقي منها، ينخفض. ولئن كان جون اليافاوي على رأس فريق في قبرص في الأربعينات من القرن الثالث عشر يدعو للخدمة في الخارج، فإن ابنه كان بعد مضي ثلاث سنوات فقط على سقوط يافا عام 1268، يتكلم باسم فريق يعارض القيام بمثل هذه الخدمة. وفي عام 1273 تم التوصل إلى تسوية كان لملك قبرص بموجبها أن يقود مقطعيه للخدمة خارج قبرص لمدة أقصاها أربعة أشهر في العام، على أن يكون القائد هو الملك شخصياً أو ابنه. وهكذا فإن حق هيوغ في دعوة فرسانه للخدمة في الخارج قد أبقي عليه، غير أنه لم يعد بعد ذلك إلى دعوة مقطعيه القبارصة للدفاع عن الشرق اللاتيني بوجه المسلمين.

في سنة 1276 غادر هيوغ عكا نهائياً، غاضباً، خائب الأمل بفعل المعارضة التي واجهها. ومن شأن تدخل بيبرس في بيروت أن يمثل لنا عجز الملك عن إبقاء مملكته موحدة. لقد كان نزاعه مع فرسانه مذلاً؛ إنه دمّر ثقة سكان عكا بقدرته على تأمين المساعدة عند اللزوم. وفي أية حال، فقد عجز الملك عن انتزاع المبادرة من المماليك، أو عن استرجاع أية مكاسب كان بيبرس قد حققها. ثم إن في صلب مشاكل هيوغ أن حقه في عرش القدس كان موضع نزاع. ماريا الأنطاكية التي فشلت في مايو عام 1268 في تحدي حقوقه في الوصاية أصرت على أنها هي، لا هيوغ، وريثة شرعية لكونراد الخامس. لا نعلم أنها بعد وفاة كونراد طالبت المحكمة العليا بالعرض رسمياً، غير أنها طالبت فعلاً بأن تتوج

من قبل بطريرك القدس، ثم إنها عند تجاهل هذا الطلب بعثت بموظف وبكاتب عدل لإرباك حفلة تتويج هيوغ في صور. بعد ذلك تقدمت بدعوى إلى روما، غير أن النظر في الدعوى تأجل. كانت قضيتها أمام المجلس في روما سنة 1272، ولكن هيوغ لم يبعث بمندوبيه للرد عليها العام 1273. وأخيراً سحبت دعواها؛ وفي بداية عام 1277، باعت زعمها بموافقة البابا إلى تشارلز أنجو، ملك صقلية. لم يكن بوسع ماريا أن تقدم أي شيء للدفاع عن عكا؛ أما تشارلز فهو في وضع مختلف كلياً. هو شقيق أصغر لسانت لويس الذي قدّم بنفسه الكثير لتأمين سلامة الشرق اللاتيني.

وفي عام 1266 صار ملكاً على صقلية. وهو رجل لا حدود لطموحاته؛ نفوذه كان يملأ عالم البحر الأبيض المتوسط. ولبعض الجهات، كان يبدو أنه أكثر من هيوغ الثالث قدرة في مجال تقديم العون العسكري والنفوذ الدبلوماسي والسياسي. لسنا نعرف متى خطرت لماريا فكرة نقل مزاعمها إليه، ولكنها كانت، على ما يرجح، قبل عام 1277 بزمن. آنذاك كان تشارلز معنياً بالشرق. وفي عام 1269، ثم في عام 1271، كان يفاوض بيبرس لعقد هدنة في الشرق اللاتيني. إن هذه النشاطات بالإضافة إلى ما كتبه مؤرخ مسلم عن أن هيوغ الثالث كان يخشاه منذ عام 1269، توحي لنا بأن طموحاته ترجع إلى ذلك الزمن.

كانت في الشرق ثلاث مجموعات رئيسية يمكن لتشارلز أنجو أن يتطلع إليها لتأمين الدعم، هي: الحامية الفرنسية في عكا، وهي التي ينفق عليها ابن أخيه الملك فيليب الثالث، ملك فرنسا، وأهالي البندقية، والداوية. الواقع أنه لا دليل على أن الحامية الفرنسية كانت تعارض

هيوغ قبل عام 1276، مع أنها كانت وراء مندوبي تشارلز بقوة في العقد اللاحق. وحين غادر هيوغ عكا تبعه وفد من شخصيات بارزة منهم قائد الحامية، وليم روسيون، إلى صور حيث توسلوا إليه أن يعينّ وصياً مسؤولين آخرين يستلمون السلطة أثناء غيابه. واضح أن هؤلاء كانوا ينظرون إلى هيوغ على أنه المصدر الشرعي للسلطة. وبالمقارنة كان البنادقة والداوية، حين كان الآخرون يلحون عليه بأن لا يغادر عكا، يتصرفون وكأنهم لا يأبهون له سواء رحل أم بقي. واضح أنهم كانوا يأملون أن يرحل.

ويمكن لمعارضة البندقية أن تعزى، على ما يرجح، إلى علاقة هيوغ الثالث الوثيقة بصاحب صور، جون مونتفور. ثم عقدت هدنة بين الجنويين والبنادقة عام 1270، وأعيد الجنويون إلى عكا. وفرض هيوغ إرجاع بعض ممتلكاتهم التي كان البنادقة قد احتلوها، ولو أن الجنويين لم يستعيدوا حيهم السابق بكامله. غير أن البنادقة لم يسمح لهم بالعودة إلى صور. لا ريب أن ذلك كان نتيجة معاملة مؤاتية لمنافسيهم ولمسؤولية آل مونتفور عن طردهم من صور في البداية أثناء حرب ساباس التي جعلت البنادقة ينقمون على الملك. غير أن المجموعة التي أضعفت مكانته في عكا أكثر من أي مجموعة أخرى هي الداوية. أثناء حياة صاحب الداوية، توماس بيرار كانت هذه المجموعة، على ما بدا، قابلة بحكم هيوغ، ولكن خلفه وليم بوجيه الذي انتخب عام 1273 كان نسيباً للعائلة المالكة الفرنسية، وكان لفترة قصيرة قبل انتخابه قائداً للداوية في أبوليا، وليس من المثير أن يكون دعم تشارلز أنجو، ثم أن استيلاء الداوية بدون الموافقة على ممتلكات بجوار عكا، بالإضافة إلى الاضطرابات في عكا نفسها مما ورّط المنظمات العسكرية وأخوياتها

المنتسبة إليها، هو ما أقنع هيوغ بأن وضعه لم يعد يطاق. وحين وصل ضباط تشارلز أنجو في السنة التالية، كانت الداوية هي التي سهلت استيلاءهم على السلطة.

في أكتوبر، عام 1276، غادر هيوغ الثالث عكا. وفي مارس عام 1277 أكملت ماريا الأنطاكية بيع حقوقها بالقدس إلى تشارلز أنجو، وخلال أسابيع وصل إلى الشرق روجر سان سيفيرينو، ممثل تشارلز. وفي عكا احتل روجر القلعة الملكية، ودعا الإقطاعيين لأداء يمين الولاء له كنائب عن تشارلز، ثم عيَّن المسؤولين. بعد ذلك اقترح، أخذ صور، لكنه عدل عن ذلك حين أشار البنادقة عليه أن ذلك قد يؤدي إلى نزاع. وكصهر هيوغ الثالث كان لجون مونتفور سبب جيد للنظر إلى النظام الجديد في عكا بقلق. وبناء على ذلك عمد في يوليو عام 1277، وبوساطة وليم بوجيه إلى إرجاع حصة البنادقة في إقطاعته في صور مقابل اعترافهم الصريح بلقبه. ثمن باهظ، لكنه امتياز كفله الراوية وعدد من رجال الدين والدنيا البارزين. وبالتزام حلفاء روجر الرئيسيين في الشرق بدعمه، أصبح وضع جون مضموناً. ولكن لا دليل مباشراً على أنه اعترف بتشارلز أنجو كملك على القدس أو بروجرسان سيفيرينو كمساعد له.

كان هيوغ الثالث قد تخلى عن عكا، غاسلاً يديه من مسؤولية الدفاع عنها، وعن حكمها، والظاهر أنه لم يقم في عام 1277 بأية محاولة لوقف تسلم روجر للسلطة فيها. على أن موقفه هذا سرعان ما تغير: وفي عام 1279 قام بأولى محاولتين لاحتلال المدينة ثانية. أتى بقوة كبيرة من القبارصة إلى صور آملاً، بأن يؤدي عرض القوة بالإضافة إلى الرشوة في

الأوساط المناسبة إلى استعادة سلطته. غير أن وليم بوجيه ظلّ معارضاً له بقوة؛ وإليه يعود بالدرجة الأولى إفشال جهود هيوغ. وفي نهاية أربعة أشهر، عند انتهاء حق هيوغ في إرغام مقطعية على الخدمة في سوريا بموجب تسوية عام 1273، تفرّق جيشه وعاد الملك إلى قبرص. هنا، وعلى سبيل الثأر، استولى على ممتلكات الداوية ودمّر تحصيناتهم. ثم جاءت محاولته الثانية للتأكيد على سلطته على اليابسة في عام 1283. فقد تشجع، ولا ريب، بانتفاضة في صقلية في السنة السابقة على تشارلز أنجو، هي انتفاضة المتعبدين الصقليين المسائيين. ثم باستدعاء روجر سان سيفيرينو بالتالي، وأتى إلى سوريا بقوة يقال إنها بلغت 250 فارساً. أول ما نزل البر كان في بيروت، ومن هناك انطلق إلى صور، على أنه أخفق ثانية. كان أودو بواليشيان، معاون شارلز أنجو في عكا، قد جدد الهدنة مع المماليك؛ ومن المحتمل أن يكون هيوغ قد خشي تدخل المماليك بحال محاولته إزاحة أودو بالقوة. والظاهر أن الداوية ظلوا مؤيدين لآل أنجو بقوة. لقد كانت هدنة أودو تغطّي سيادة الداوية على عتليت وصيدا. بالإضافة إلى عكا وحيفا كذلك؛ وكان المعتقد أنهم هم الذين حرضوا كميناً إسلامياً لذلك القسم من جيش هيوغ الذي كان قد توجّه من بيروت إلى صيدا براً. وفي 24 مارس عام 1284 توفي هيوغ، وهو لا يزال في صور.

وهكذا، فإن آل أنجو سيطروا على عكا؛ كانوا مدعومين من قبل الداوية الذين وفّرت لهم ملكية عتليت وصيدا دوراً رئيسياً في الدفاع عن الأراضي المسيحية المتبقية في المملكة اللاتينية. أما من ناحية ثانية، فإن هيوغ ظلّ معترفاً به في صور وبيروت كملك شرعي على القدس. وسمح جون مونتفور لهيوغ بأن يستخدم صور قاعدة له في عامي 1279

و1283 معاً. ثم إن شقيقه الأصغر هنري. تزوج من أسكيفا إيبيلين التي تسلمت السيادة على بيروت عند وفاة شقيقتها إيزابيلا نحو عام 1280. أما بعد عام 1277 فلم يعد هيوغ في وضع يستطيع معه أن يقوم بأي شيء بنّاء في الميدان الدبلوماسي أو العسكري لمساعدة اللاتين في معاملاتهم مع المماليك، ولو أن هنالك من الإثباتات ما يوحي بأنه نوى تقديم العون للمغول حين حاولوا غزو سوريا عام 1281.

وهكذا فإن الملك الذي بدا في الستينات من القرن الثالث عشر كأنه سيؤمن للشرق اللاتيني قيادة سياسية إيجابية مدعومة بعون عسكري من قبرص، صرف السنوات الثماني الأخيرة من حياته عاجزاً عن حكم المدينة الملكية الوحيدة الباقية في سوريا.

وخلف هيوغ ابنه البكر جون. لقد بقي حياً بعده وتوّج ملكاً على قبرص في نيقوسيا في مايو عام 1284. وبعد عام تقريباً توفي جون وخلفه شقيقه هنري الثاني الذي توج بدوره في يونيو عام 1285. ثم جدد هنري جهود والده لاستعادة عكا حيث كان الرأي العام أقرب إلى آل لوزينيان منه في السابق. والمحتمل أن المشاكل المستمرة التي كانت تواجه سلالة أنجو في إيطاليا أقنعت الناس بأن لا ينتظروا أن تأتيهم أية مساعدة من تلك الجهة. وليم بوجيه نفسه كان على استعداد لتغيير موقفه، ثم إن التمهيد للاعتراف بهنري في عكا جرى حين توصل فارس يدعى جوليان ليه جون إلى اتفاق مع وليم. وفي يونيو عام 1286 أبحر هنري إلى سوريا، ودخل عكا حيث لاقى الترحيب الحار من قبل جميع السكان. الحاكم من قبل أنجو، أودو بواليه شيان والحامية الفرنسية فقط ظلوا على عدائهم له. ولما كان هؤلاء الجنود يحتلون القلعة الملكية،

فقد كان لزاماً على الملك أن يخرجهم منها. وبعد حصار ومفاوضات على مدى خمسة أيام، سلّمت القلعة على أساس عدم الانتقام من الفرنسيين، وإعادة القلعة إليهم إذا ما ارتأى مولهم ملك فرنسا أن هنري أخطأ في إخراجهم منها. بعد ذاك توجه هنري إلى صور حيث توج ملكاً على القدس في 15 أغسطس. واعقبت التتويج احتفالات سخية. وفي نوفمبر عاد إلى قبرص تاركاً خاله بولدوين ابيلين معاوناً له في عكا.

ولم يتمكن شارل الثاني، ملك صقلية الجديد، أن يتصدى لنجاح هنري في حكم عكا، مع أنه ظلّ هو وأبناؤه يدّعون لأنفسهم لقب ملك القدس. وفي عام 1286 كان المسيحيون في المملكة اللاتينية يعيشون بسلام مع جيرانهم المسلمين منذ 14 سنة: كانت هدنة عام 1272 قد صمدت؛ ثم جدّدها أودو بواليه شيان عام 1283 ومدّدها. ومنذ عام 1269 وعام 1271 على التوالي كان سيدا بيروت وصور قد عقدا هدنتيهما، على أن العلاقات في المناطق البعيدة إلى الشمال لم تكن هادئة إلى هذا الحد، وفي عام 1285 استولى المماليك على حصن مرتب للإسبتارية، وهو الذي كان حتى ذلك الوقت منطلقاً لغزو الأراضي الإسلامية ولتأمين التعاون مع المغول. وكانت مملكة هنري تضم ما يتجاوز قليلاً مدينة عكا، وصاحبي عتليت وصيدا الإسبتاريين وصاحبي صور وبيروت.

فجأة انتهت عودة سلالة لوزينيان إلى اليابسة السورية في عام 1286 ونجاحات هنري الثاني في مباشرته إعادة تكوين السلطة الإدارية باحتلال المماليك لعكا عام 1291، وبالتخلي عن بقية المدن والقلاع. وفي عام 1289 أرسل هنري أخاه أموري للدفاع عن طرابلس على رأس

قوة من الفرسان والقوى البحرية؛ وبعد خسارة طرابلس قدم بنفسه إلى عكا وجدّد الهدنة مع المماليك؛ وفي الوقت ذاته تقريباً بعث بجون غريلي، قائد الحامية الفرنسية في عكا إلى أوروبا بحثاً عن مساعدة عسكرية.

لقد رويت حكاية خسارة عكا في مايو عام 1291 مرات عديدة في السابق. إن تصرف هنري الشخصي أثناء الحصار، كان، رغم ما وجه إليه من تهم الجبن، مدعاة للثقة والتقدير. المشكلة الأساسية هي أن المسيحيين كانوا يفتقرون إلى القدرة العسكرية للمقاومة. هنالك أرقام عديدة مذكورة في المصادر؛ غير أن أكثرها ثقة هي التي حفظها «داوية صور» الذين ذكروا أنه كان للمسيحيين في بداية الحصار 6 ـ 7 آلاف فارس و13000 جندي من المشاة بمن فيهم المقاتلون الصليبيون من الغرب. أما التعزيزات القبرصية التي جاء بها هنري بعد البدء بالحصار، فيقال إنها تراوحت بين 100 و200 فارس، و200 و500 جندي من المشاة. الحقيقة إن قوات هنري القبرصية لم تكن إضافة ذات أهمية إلى عدد المدافعين، كي لا نقول إنها لم تؤدِ إلى ترجيح الكفة لمصلحة المسيحيين. ثم إن هذا التفسير نفسه، أي الافتقار إلى القوة من أجل الدفاع، هو الذي يقوم، ولا ريب، وراء استسلام بقية المدن والقلاع على الساحل فور سقوط عكا. لا ريب أن سقوط عكا كان ضربة قاسية للمعنويات؛ ولا بد من الافتراض أن المسيحيين بذلوا كل جهودهم للدفاع، لكنهم كانوا يفتقرون إلى الموارد للقيام بمقاومة ذات أهمية في الأمكنة الأخرى.

إننا لا نعلم مجموع القوة العسكرية التي كانت تحت تصرف ملوك قبرص في القرن الثالث عشر، لكنه يحتمل أن الـ 250 فارساً الذين جاء

بهم هيوغ الثالث إلى صور عام 1283، أو الـ 200 فارس الذين يقال إن هنري الثاني أتى بهم إلى عكا عام 1291، مثلوا الحد الأقصى للقوات التي يمكن الاستغناء عنها أثناء القيام بواجبات الحماية في الجزيرة. وبكلام آخر، إن المساعدة القبرصية كانت مشكورة ولا شك، ولكن موارد ملوك لوزينيان كانت محدودة، ثم إن قدرتهم على مساعدة سوريا اللاتينية كانت بالتالي محدودة. هنا يجب أن نضيف أن هنالك أمثلة عديدة على انتشار القبارصة في سوريا، إلا أنه ليس هنالك ولو إشارة إلى حادثة واحدة من الشجاعة أو الإنجاز مما لفت أنظار الرواة؛ إن التزام الفرسان، كما دلّت الخلافات حول الخدمة عام 1271، لم يكن بالضرورة قلبياً مخلصاً.

ومن ناحية أخرى، إن القيادة السياسية من آل لوزينيان كانت ناشطة، ومعقولة، لكن الإنقطاعات كانت متعددة. بحيث استحال تحقيق إنجازات دائمة. فلا هنري الأول، ولا هيوغ الثالث، ولا هنري الثاني، استطاعوا السيطرة الكاملة على البارونات المدنيين، أو المنظمات العسكرية أو الحامية الفرنسية في عكا. والحقيقة أن البابا نيقولاوس الرابع البابا أثناء سقوط عكا، لم يوجه مراسلاته إلى هنري الثاني، ملك القدس، بل إلى مجموعة من الأشراف. وفي أفضل حالة، يمكن القول إن آل لوزينيان حكموا بالرضى وأضفوا على حكومة عكا شيئاً من الشرعية. على أنه إذا كان علينا أن نحذر نسبة دور أهم من الواقع لقبرص في تاريخ الحروب الصليبية والشرق اللاتيني في القرن الثالث عشر، فالصحيح هو أن المساعدة المادية القبرصية من حيث العون الاقتصادي والعسكري، من هذا النوع أو ذاك، زادت بالفعل موارد المسيحيين على اليابسة إلى درجة معتدلة من المصداقية؛ وإذا كانوا قد

أخفقوا في النهاية فإن الملوك من آل لوزينيان في النصف الثاني من القرن، بذلوا أقصى الجهد لمواجهة القوى النابذة التي نشأت لغياب حاكم كفء لمدد طويلة، وللأطماع المفتتة عند الجمهوريات البحرية الإيطالية والعناصر الأخرى في المجتمع السياسي. لقد كان هيوغ الثالث وهنري الثاني الملكين الوحيدين اللذين كانا في وضع يمكن من القيام بهكذا محاولة. غير أن نجاحاتهما لم تكن كافية للحيلولة دون انتصار السلطنة المملوكية المركزية، بما لها من قدرة عسكرية متفوقة.

6

عهد الملك هنري الثاني

أدّى الفتح الإسلامي لعكا وللمدن الأخرى على الساحل السوري، عام 1291، إلى تغيير الوضع السياسي في الشرق. على اليابسة عنى أن الملك هنري لم يعد ملزماً بتخصيص قوات للدفاع عنها، فأصبحت قبرص القاعدة الوحيدة للمسيحية الغربية في شرقي البحر الأبيض المتوسط. وأمست مملكة أرمينيا الصغرى، الكيليكية، الدولة المسيحية الأخرى الوحيدة في المنطقة وفي جبيل سمح المسلمون لعائلة إمبرياكو الجنوية بأن تحتفظ بملكيتها تحت سيطرتهم لبضع سنوات. فبات الساحل المشرقي من خليج إسكندرون إلى مصر وما وراءها خاضعاً لسيطرة المماليك. ثم إن الخطر المباشر هو احتمال متابعة المماليك انتصاراتهم بغزو قبرص. ومن ناحية أخرى كان هنالك كثيرون من الناس في الغرب على استعداد للإدعاء الظاهر بدعم فكرة تنظيم حملة صليبية جديدة لاسترجاع الأراضي المقدسة. بيد أنه لم يحدث في الواقع غزو مملوكي، ولا كانت هنالك حملة صليبية لاسترجاع القدس.

لقد وصفت قبرص بأنها ملاذ الفارين من الزحف الإسلامي منذ الأربعينات من القرن الثالث عشر، وفي عام 1291 فرّت أعداد كبيرة من

الناجين من سوريا إليها، الكثيرون منهم، من الفرنجة والمسيحيين السوريين، كانوا قد منوا بالفقر، ثم إن أوضاعهم كانت قد ازدادت سوءاً نتيجة سلسلة من المواسم الرديئة في منتصف العقد الأخير من القرن الثالث عشر. وهنالك عدد من العائلات البارزة في مملكة القدس كانوا قد امتلكوا بعض الأراضي في قبرص قبل ذلك بزمن طويل، لكن الكثيرين فقدوا كل وسيلة لهم لتأمين حاجاتهم في كارثة عام 1291. وبعد سقوط عكا، أقام الداوية والإسبتارية مركزاً لهم في الجزيرة؛ كذلك أصبحت قبرص مقر جماعات دينية أخرى فرت أمام الفتوح الإسلامية. الكثيرون من السكان غير اللاتين في الأصل في موانىء سوريا المسيحية ممن فروا إلى قبرص احتشدوا في فمغوستا. ويقال إن هؤلاء الناس، وغالبيتهم من المسيحيين الناطقين بالعربية، تجاوزوا الروم فيها عدداً. ولا ريب أن هؤلاء «السوريين»، كما كانوا يعرفون، لعبوا دوراً رئيسياً في نشأة فمغوستا كمركز تجاري في هذه الفترة.

وما أن وصل نبأ سقوط عكا إلى الغرب حتى بدأ البابا نيقولا الرابع يأخذ التدابير الهادفة إلى التعويض عن الخسارة داعياً إلى حملة صليبية تكون جاهزة للانطلاق في صيف عام 1293؛ أمر المجالس الكنسية الإقليمية بأن تجتمع للنظر في استعادة الأراضي المقدسة؛ تبنى الاقتراح الداعي إلى تشكيل منظمة عسكرية جديدة تدمج الداوية والإسبتارية؛ وأعلن حظراً لمدة عشر سنوات على الاتجار مع أراضي سلطنة المماليك؛ وأرسل موفدين إلى المغول. وراح بعد ذلك، في مطلع عام 1292، ينظم مساعدة لأرمينيا الكيليكية. لكن وفاته في أبريل عام 1292 وشغور مركز البابوية لمدة تجاوزت العامين عنيا أن غالبية هذه المبادرات لم تسفر عن شيء. لم تقع حملة صليبية ولم تنشأ منظمة عسكرية مدموجة؛ على أن

المقاطعة التجارية ظلت تمثل حجر الزاوية في السياسة البابوية.

أخذ البابا التهديد لقبرص مأخذ الجد، وتمكن من أن يرتب إرسال أسطول من عشرين قادوساً (سفينة شراعية كبيرة) إلى المياه القبرصية؛ أبحر عام 1292 بقيادة مانويل زكريا الجنوي، ثم انضم إليه في الشرق خمسة عشر قادوساً جهزها الملك هنري. وهاجمت المجموعتان «ألايا» على الساحل الجنوي لآسيا الصغرى، ثم هاجمتا الإسكندرية، ولكنهما لم تحققا أي نجاح يذكر. وبناء على ما كتبه المسيحيون، إن غزو الإسكندرية دفع السلطان الأشرف خليل إلى تنظيم حملة لفتح قبرص، ثم شرحوا كيف أن أمراءه الذين ذعروا من أطماعه وعنجهيته، عملوا على اغتياله. وتؤكد المصادر العربية أن وفاته كانت نتيجة النزاع بين النخبة العسكرية، ثم أعقبت ذلك فترة طويلة من النزاع وسفك الدماء مما أدى إلى أن غزو المماليك للجزيرة لم يعد موضع بحث.

وفيما يتصل بقبرص، جاء النزاع السياسي الداخلي في مصر في وقت مناسب إلى أبعد حد. في عام 1293 اندلعت الحرب بين البندقية وجنوى. وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن الوجود البحري للغرب في الشرق لم يعد مضموناً. ومن ناحية ثانية، كانت المنظمات العسكرية تنظم أساطيلها الصغيرة آنذاك. وفي عام 1293 نقرأ عن قادوسين للداوية يبحران إلى قبرص برفقة بعض أهل البندقية، فيما كان الإسبتارية، في الوقت نفسه، بتشجيع من البابا، يطورون سلاحهم البحري. وأشار تشارلز الثاني الصقلي إلى عشرة قواديس في قبرص تخص هذه المنظمة؛ وفي عام 1297 أشار البابا بونيفايس الثامن إلى اشتباك سفن الإسبتارية في نزاعات مع المسلمين. وكانت للملك كذلك

قواديسه (أو سفنه الشراعية الكبيرة) ولكنها لم تكن كبيرة العدد، ولعله كان في هذا الوقت يستأجر سفناً غربية للعمل في خدمته عند الحاجة.

وكانت إحدى المهمات الرئيسية لهذه السفن هي تنفيذ الحظر البابوي على التجارة الغربية مع المماليك. وكان رقيم نيقولا الرابع قد أعلن أنه في حالة المخالفة الكبيرة للحظر تكون البضائع المعنية مباحة لمن استولى عليها. وبذلك كان لربابنة السفن التي تخفر البحار ما يخفرها؛ والظاهر أن هنالك بالتأكيد أشخاصاً استغلوا الحظر لمنافعهم الشخصية. وأحد الأدوار المرسومة لأسطول مانويل زكريا في عام 1292 هو اعتراض التجارة غير المشروعة؛ ومن قضية قانونية أمام قاضي جنوى في فمغوستا عام 1297، نعرف أن قرصاناً من جنوى استأجر سفينة وجهّزها بالسلاح للعمل «ضد الشرقيين وضد أولئك الذين يقصدون أمكنة محظورة من الكنيسة الرومانية المقدسة».

كذلك استبقى الملك هنري عدداً صغيراً من القواديس في البحر لوقف السفن التي تتاجر مع المماليك؛ وكان مداها يصل حتى كورفو بحثاً عن الغنيمة. وقد احتفظ بحراسه من العقد الأخير من القرن الثالث عشر حتى العقد الثاني، على الأقل، من القرن الرابع عشر؛ إلا أن فعالية هذه التدابير، رغم ما تذكره المصادر القبرصية من سفن تصادر، وتجار يواجهون حكم الحرم الفوري، ظلت محدودة إلى حد بعيد لا تحد كثيراً من حجم التجارة الأوروبية مع مصر وسوريا.

وظل الملك القبرصي إلى جانب دعاة الحملات الصليبية متمسكاً بالنظرية القائلة بأن إضعاف السلطنة وجعل استرجاع الأراضي المقدسة

ممكناً، ينبغي لهما إفقارها إلى المواد الحربية، والأرقاء المماليك، والسلع الأخرى المنقولة بحراً بحيث تضعف طاقتها العسكرية وأوضاعها الاقتصادية العامة. أما في الواقع، ورغم الحظر البابوي والحراسة الملكية، فإن التجارة بين فمغوستا والموانىء السورية في ظل المماليك ظلت مزدهرة.

وهنالك احتمال أكثر إيجابية لاسترجاع الأراضي المقدسة قائم في أمل التحالف مع المغول. ومنذ أوائل الستينات من القرن الثالث عشر كانت فكرة التعاون بين حملة صليبية من أوروبا والغزو من قبل إيلخان فارس بارزة في المخططات الغربية لإخراج المماليك من سوريا. ثم إنه كان هنالك تصور عام واسع بأن القادة المغول أنفسهم سوف يعتنقون المسيحية ويعيدون القدس إلى الفرنجة. على أن الإيلخان عجز في عام 1269 وعام 1271 عن إرسال الدعم الكافي؛ وفي عام 1280 ـ 1281 كان المسيحيون هم الذين خانوا حليفهم. ثم كانت هنالك توقعات أخرى عن حدوث حملة مغولية على دمشق في بداية عام 1291. واستمرت الآمال بالتعاون بعد سقوط عكا، غير أن المسيحية الغربية لم تكن مستعدة أبداً عندما قام الإيلخان غازان، بدعم من أرمينيا وجورجيا، يغزو سوريا في أكتوبر عام 1299. والظاهر أنه بعد انطلاقه في حملته أوفد رسولاً إلى قبرص يدعو الملك والمنظمات العسكرية لإرسال القوات. وصل الرسول في نوفمبر؛ ولكن المسيحيين عجزوا عن الاتفاق على ما يفعلون. ثم وصل رسول ثانٍ في نهاية الشهر، يحثهم على الإسراع، لكنهم لم يكونوا قد قاموا بأي حركة عندما أنزل غازان هزيمة حاسمة بالمماليك بجوار حمص في 24 ديسمبر، وفي يناير استسلمت دمشق، على أن غازان عاد إلى فارس في الشهر التالي؛ ثم لم

يطل الأمر حتى تمكن المماليك من استرجاع الأراضي التي كان قد استولى عليها.

وبعد انسحاب غازان حاول هنري أن يستغل انهيار سلطة المماليك في سوريا. فأرسل قادوسين ومطاردتين فيها أربعون خيالاً وستون راجلاً إلى البترون وطلب منهم البقاء هناك والعمل على تحصين البلدة المجاورة، نيفين ريثما يكون قد وصل على رأس القوة الرئيسية. إلا أن الفلاحين المسيحيين المحليين قالوا لقادة القوة بأنه يسهل عليهم الاستيلاء على قلعة مونت بيليران في طرابلس. وانطلق القبارصة إلى ذلك المكان لكنهم وقعوا في كمين قوة إسلامية أكثر منهم عدداً إلى حدٍّ كبير. عند ذاك انسحب الناجون إلى البترون فإلى قبرص. ثم أبحرت قوة ثانية بقيادة غي إيبيلين، كونت يافا، وجون الأنطاكي إلى جبيل ونيفين بقصد الاتصال بغازان، على ما يبدو. وقرر القادة، حين علموا أنه انسحب أن يبقوا في جبيل التي كان قد استولى عليها بحار جنوي عامل لحسابه، غير أن القوات الإسلامية المحلية تمكنت من التجمع ومن طردهم. وعنى هذا العجز عن إقامة رأس جسر أن المحاولة القبرصية حين أصبحت جاهزة، كان لا بد لها أن تقنع بالغزو عبر البحر. وفي 20 يوليو أبحر إلى مصر 16 قادوساً وعدد من السفن الصغيرة، وهو أسطول كبير بالمقاييس القبرصية، فنهبوا الساحل عند الرشيد قبل التوجه إلى الاسكندرية التي لم يهاجموها، مع أنهم استولوا على سفينة إسلامية قادمة من «ألايا» وأحرقوها، ثم أبحروا شمالاً إلى عكا فإلى طرطوس ومرقلية حيث أخذت مجموعة من الإسبتارية على حين غرة وفقدت فارساً و20 راجلاً، بعد ذلك عادوا إلى قبرص عن طريق أرمينيا. ومن الصعب أن نفهم كيف أن مثل هذه التظاهرة البحرية، من هذا النوع، يمكن لها أن

تسهم في احتمال استعادة المسيحيين للأراضي المقدسة.

إن حملة غازان في شتاء 1299 ـ 1300 حققت نجاحاً كبيراً، ولو أنه مؤقت. إذ احتل جيشه دمشق واجتاح فلسطين حتى غزّة؛ وضخمت الشائعات في غربي أوروبا هذا الإنجاز لتجعل منه احتلالاً كاملاً للأراضي المقدسة. والحقيقة أنه لم يستطع أن يصمد. وقيل إن انسحابه كان لسبب أساسي بسيط هو انعدام العلف لجياده؛ وفي مايو عام 1300 كان المماليك قد عادوا إلى السيطرة ثم إن عجز القبارصة عن تأمين موقع قدم لهم، وعن التنسيق في جهودهم كان نقطة ضعف إضافية ولو أنها ثانوية. غير أن غازان كان مصمماً على ترسيخ موقعه في سوريا، ولذلك خطط لحملة ثانية أثناء شتاء عام 1300 ـ 1301. إلا أن القبارصة كانوا مستعدين هذه المرة. وفي نوفمبر ذهب إلى طرطوس 300 خيال بقيادة أموري الصوري، شقيق هنري، ومعهم أبحرت قوات الداوية والإسبتارية. وإذا كانت الأعداد التي يذكرها الرواة صحيحة، فإن جنود أموري كانوا هذه المرة أكثر بكثير من الفرقة القبرصية عند سقوط عكا في عام 1291، أو من أية قوة أرسلت إلى سوريا في القرن الثالث عشر؛ ولا بد من القول إنها كانت أقصى ما يمكن للملك أن يجنده. وفي طرطوس، انتظروا المغول، لكن الغزاة المغول لم يأتوا، وحين أخذ القبارصة يتعرضون للهجوم، انسحبوا إلى جزيرة أرواد قبالة الساحل؛ ولم يأتِ المغول إلى شمالي سوريا حتى فبراير التالي. لم يكونوا بقيادة غازان الذي كان مريضاً، بل بقيادة قائده قطلغ شاه؛ ثم انضم إليهم ملك أرمينيا الكيليكية وكونت غي اليافاوي وجون الجبيلي الذي توجه من قبرص إلى أرمينيا لينتظره. واجتاح المغول سوريا حتى حمص، ثم تخلوا عن الحملة قبل إنجاز أي شيء بالتعاون مع الجيش القبرصي.

وعاد صاحب جنود صور إلى قبرص تاركاً الداوية يحتفظون بأرواد التي أكدّ البابا ملكية المنظمة لها في عام 1301. بعد ذلك لم يحدث أي شيء آخر، على ما يبدو، حتى العام التالي حين وصلت قوة من المماليك، كبيرة إلى حد أنها احتاجت إلى 20 قادوساً لنقلها، لإخراج حامية الداوية منها والحيلولة دون استعمال أرواد في عمليات مشتركة مع المغول. كان الداوية محاصرين في برج في الجزيرة، وعملوا للحصول على شروط للاستسلام. ثم تمّ التوصل إلى اتفاق؛ غير أن المسلمين تراجعوا عن كلمتهم، وأسروا أفراد المنظمة بعد أن قضوا على بقية قواتها. لقد كانت محاولات إنقاذ الحامية من قبرص بطيئة جداً. وحين قاد قطلغ شاه جيش الإيلخانة ثانية إلى سوريا في مطلع عام 1303، مني بالهزيمة بجوار دمشق. وتوفي غازان عام 1304؛ وبعد وفاته لم تقع أية هجمات مغولية رئيسية بهدف فتح سوريا.

وكان سقوط أرواد علامة نهاية الجهود المنطلقة من قبرص لاستعادة الأراضي المقدسة؛ في ثلاث مناسبات، في 1229، و1301 و1303، دخل المغول سوريا؛ وفي المناسبات الثلاث لم يجرِ أي تعاون فعال مع المسيحيين. أما في أوروبا فكان ينتظر أن تجري حملات مغولية أخرى، وأن المسيحية قد تستفيد منها. وتواصلت الاتصالات الدبلوماسية بين الإيلخانات والغرب؛ وفي 1302 و1304 جاءت سفارتان مغوليتان إلى روما. وحوالى عام 1307 صدرت مذكرة عن الإسبتارية دعت البابا إلى وضع قوة من 1000 خيال و4000 نبّال، وستة قواديس في قبرص ورودس لتنفيذ الحظر التجاري. وتكون هذه القوة، كما قيل، بحال غزو المغول لسوريا، في وضع تتمكن معه من مهاجمة مصر.

في رأي كاتب المذكرة أن مصر تكون آنذاك خالية من الجيوش المنشغلة بمواجهة الخطر المغولي بحيث إن الهجوم المباشر يكون بالتالي أجدى من نشر القوات المسيحية على مقربة من منطقة المعركة. ولكن المسلمين في مصر سرّوا حين توجه القبارصة والمنظمات العسكرية إلى طرطوس. وجاء هذا الاقتراح يجسّد واحداً من عدد من الآراء المتنوعة التي كانت تعرض في نحو هذا الوقت بالنسبة إلى الاستراتيجية التي يجب أن تتبع في حملة صليبية في المستقبل إلى الأراضي المقدسة. وفي عام 1311 كتب الملك هنري الثاني مؤيداً لهجوم مباشر من قبرص على مركز السلطة المملوكية في مصر، أما هايتون غورهيغوس الأرمني الذي اعتبر التعاون مع المغول ذا أهمية كبيرة فكان رأيه في عام 1307 أن تكون الحملة لدخول سوريا من كيليكية. وبعد بضع سنوات كان مارينو سانودو، وهو من البندقية، يؤيد حملة على مصر، لكنه كان يعارض استخدام قبرص قاعدة للهجوم.

إلا أنه كان في الغرب إجماع على وجوب الدفاع عن قبرص وأرمينيا الكيليكية معاً في وجه الهجوم الإسلامي في المستقبل. وإذا كانت قبرص قد بقيت آمنة، بعد عام 1291، فإن أرمينيا كانت تفقد الأرض وتتعرض لضغط كبير من المماليك. وفي عامي 1298 و1307 كان الأرمن يناشدون الغرب كي يمد لهم يد العون؛ وهنالك إثبات على أن البابا كان منذ عام 1307، بعث معونة مالية. غير أن الشيء الذي لم يكن بمثل هذا الوضوح هو موقف الغرب من سلالة لوزينيان. وفي معاهدة كلتابيلّوتا، عام 1302، بين الملك تشارلز الثاني في صقلية، ومنافسيه في آراغون، ذكر أن ورثة الحاكم الفعلي لجزيرة صقلية، فريدريك آراغون، يجب أن يعوضوّا بقبرص، وسردينيا أو بمملكة من المستوى نفسه مقابل

تسليم صقلية إلى تشارلز أو خلفه.

ومع مرور الزمن، أخذ أشقاء هنري ومقطعوه يتزايدون سخطاً واستياء منه لعجزه عن معالجة المصاعب التي كانت تواجه المملكة. وفي العقد الأخير من القرن الثالث عشر أدَّت العلاقات الرديئة مع جنوى إلى زيادة حدة المشاكل الناشئة عن الوضع السياسي الجديد. هل كان الجنويون لا يزالون يحتفظون بالشعور بالاستياء من اللوزينيانيين لدورهم في هزيمتهم واخراجهم من عكا أثناء حرب القديس ساباس؟ وفي عام 1288 أثارت السلطات في جنوى عداء الملك القبرصي برفض التصديق على اتفاقية تجارية جديدة عند ذاك جاء دور الملك في التسبب بالحقد، إذ عمد سنة 1291 بعد سقوط عكا مباشرة، إلى منح امتيازات تجارية إلى بيزا وبرشلونة، المتنافستين مع جنوى في غربي البحر الأبيض المتوسط. وفي عام 1293 انفجرت الحرب التي انتهت بعد خمس سنوات بنصر جنوى على البنادقة في كورزولا.

وفي هذا الصراع جرت أحداث متعددة في قبرص، أو حولها؛ والروايات الباقية عن هذا الصراع لا تترك شكاً في أن ميول أبناء الجزيرة كانت إلى جانب البندقية. هنا يروى أنه في عام 1294 وصل أسطول من البندقية إلى ليماسول وأنزل الضرر بالبرج الخاص بجنوى وبمستودعاتها، فلم يثر هنري لذلك بل قدم لقائده بعض التشجيع الودي. بعد ذلك اندفع البنادقة إلى فمغوستا حيث تنبه المسؤول الأمني الملكي هناك إلى أنه ملزم بموجب شروط الامتياز بأن يحمي تجار جنوى؛ غير أنه لم يفعل أكثر من أن يشير عليهم باللجوء إلى نيقوسيا. بعد ذلك أبحر الأسطول إلى كيليكيا، مهاجماً المصالح المنافسة له في طريقه، إلى أن واجه هزيمة ساحقة عند مداخل «أياس» على أيدي قوة جنوية أصغر

حجماً. وفي مناسبة أخرى، في عام 1297، استولى أحد البنادقة على سفينة جنوية تحت قلعة فمغوستا وأشعل فيها النار من غير أن يلقى أية عقوبة أمام أنظار القبارصة والجنويين؛ وفي السنة التالية ظهر إثبات على تحيز قبرص ونشر تحذيرات للبنادقة من وجود قرصان من جنوى.

واضح أن انتصار الجنويين على منافسيهم زاد حزمهم وتشددهم، فطلبوا بالتالي من هنري تعويضاً عن الأضرار التي نزلت بسفنهم في المياه القبرصية أثناء الحرب. ورفضت هذه المطالب؛ وفي مارس عام 1299، طلبت حكومة جنوى من مواطنيها، إلا ممن كانوا قد حصلوا على إقامة كمواطنين، أن يغادروا الجزيرة. وبكلام آخر، إنهم هددوا بمقاطعة تجارية. واستجاب هنري لذلك بأن دعا كل من له مطلب من الجنويين بأن يتقدم منه بذلك، معززاً مطلبه بشهادات قضائية، ولعله أصدر كذلك تعليمات منع فيها الجميع من إقامة أية علاقة تجارية معهم، ومنعهم من مغادرة قبرص، وأمر بمصادرة سلعهم. وفي القسم الأول من عام 1301 عادت العلاقات عادية إلى حدٍ كافٍ حتى إن حكومة جنوى عينت لها مندوباً جديداً في الجزيرة.

غير أن التوترات إستمرت مع استمرار نشاط القراصنة في المياه القبرصية، ومع التزام حكومة قبرص بتطبيق الحظر البابوي على التجارة المباشرة بين أوروبا الغربية ومصر المملوكية. ثم عادت الأمور فبلغت الذروة حوالى أواخر عام 1305 حين أشيع أن هنالك هجوماً جنوياً وشيكاً. بدأ هنري بمغادرة مملكته، ثم أمر بإلغاء أوامره، موضحاً أن عليهم إذا شاؤوا التمتع بالامتيازات أن يتصرفوا التصرف الحسن؛ عليهم أن يقسموا اليمين بالدفاع عن مصالح المملكة، وبأنهم، عند طلب الملك، يغادرون المدن الساحلية ويستقرون في نيقوسيا. هل يعود

ذلك إلى أي حدث خاص معين أوجب مثل هذه التطورات؟ ذلك غير واضح، غير أن النزاع كان قد بلغ نطاقاً واسعاً. وفي عام 1306 كان على البابا أن يحذِّر الجنويين من أن النزاع يعرقل حملته الصليبية المقترحة ويحثهم على عقد الصلح مع الملك. وفي أبريل من تلك السنة حين أقدم أموري الصوري والبارونات على تعليق صلاحيات هنري الملكية، كان مرد ذلك إلى فشله في اتباع نصيحة رجاله في كيفية التعامل مع الجنويين؛ كانوا كالأعداء الفاتكين يتحدّون الملك وشعب مملكته؛ كانوا في رأس جدول الأسماء المقدمة لتبرير عملية الاستيلاء على السلطة.

كذلك وجد هنري نفسه على خلاف مع منظماته العسكرية؛ وبعد سقوط عكا، أقام الإسبتارية، أو فرسان مار يوحنا، والداوية، مقراً لهم في قبرص، غير أن العلاقات بينهم وبين التاج كانت بعيدة عن أن تكون سهلة. كانت للمنظمتين ممتلكات عقارية واسعة في الجزيرة؛ كلتاهما تتلقى مساعدات مالية ضخمة من أوروبا الغربية، ثم إنه لم تكن لهنري أية سيطرة على أعداد كبيرة من المسلحين في مملكته. كانوا منذ عام 1291 يبحثون لهم عن دور جديد يقومون به في الصراع ضد المسلمين. وفي حالة الإسبتارية وجد الشك والإحباط بعد خسارة سوريا اللاتينية تعبيراً عنهما في سلسلة من منازعات داخلية. ومنذ عام 1306 أخذت المنظمة على عاتقها احتلال جزيرة رودوس الهامة استراتيجياً، وبذلك استعادت شعوراً قيماً بالهدف من وجودها. أما وضع الداوية، من ناحية ثانية، فكان من حيث الظاهر على الأقل، في حالة أقل صعوبة بعد عام 1291، ولكن عجزهم عن إيجاد مبرر لهم تركهم عرضة للهجمات من الغرب مما أدى إلى القضاء عليهم في النهاية. إن ثروة المنظمات وقواها طالما سببت للملك الكثير من التخوف؛ والأكثر من ذلك مباشرة أن محافظة

المنظمتين على علاقات جيدة مع خصمه تشارلز الثاني ملك صقلية، جعلت من دعمهما لنظام قبرص موضوع تساؤل.

وفي 26 أبريل عام 1306، أعلن أموري لوزينيان، صاحب صور وشقيق الملك القبرصي، ووريثه، أن هنري في حالة مرض شديد؛ ثم تبنى لقب «حاكم وقسٍ»، وتسلم السيطرة على المملكة. أكثرية كبار المقطعين، بمن فيهم جميع أفراد مجموعة إيبيلين القوية، تقريباً، كانت تؤيده حتى أن استيلاءه على السلطة تحقق بغير عنف. كان أموري قد أعدّ جدولاً بالشكاوى لتبرير فعلته؛ وفي خطاب تلاه عنه ذلك اليوم هيوغ إيبيلين، أحد كبار أفراد عائلته: «إن حاجات المملكة لم تكن، ولم تعد، تحصل على العناية اللازمة...». إن هذا الحكم عليه، كالتهم اللاحقة التي أعلنت للتأثير في البابا، سبق أن ألمحنا إليه؛ لقد عجز الملك عن تأمين سلامة وحسن حالة المملكة؛ وبرغم نصيحة مقطعيه. لم يقم بشيء يجنّبه خطر الجنويين؛ كذلك لم يتخذ أي تدبير لمقاومة غزوة السلطان البحرية، ولا لإرسال المعونة لمملكة أرمينيا التي كانت قد عانت الكثير في السنوات الأخيرة على أيدي المسلمين. واتهم بالجمود في وجه السفن المعادية، وبالسماح لقبرص كي تزداد عزلة من الناحيتين الدبلوماسية والعسكرية، وبالتقصير في تأمين المواد الغذائية في زمن المجاعة، حتى حين كانت الحنطة معروضة. الجميع كانوا معنيين بانعدام الاستعدادت العسكرية؛ والأهم من ذلك أنه بتأخيرات للأمور بلغت العشرين عاماً، لم يكن بالإمكان تحقيق العدالة؛ بذلك صار بالإمكان تجريد الورثة من ميراثهم، ومنع أفراد المنظمات العسكرية من ضبط الأضرار التي نزلت بهم. على أن التهم كانت مصوغة بعبارات عامة؛ ولئن كان التهديد الجنوي مثار قلق رئيسي، فالواقع إنه يستحيل أن

نعرف مدى صحة التهم الأخرى. ولا يظهر أن هنالك ما يؤيد الاعتقاد بأن المسلمين كانوا يخططون للهجوم على قبرص في هذه الفترة.

لا ريب أن محاولات القبارصة تنفيذ الحظر البابوي على التجارة مع المسلمين زادت من حدة تصاعد الخلافات حول الديون غير المدفوعة، وحول أعمال النهب والقرصنة، ثم تواصلت الخلافات الناشئة عن محاولات أموري وهنري لحراسة البحار خلال عهد هيوغ الرابع. إيقاف السفن العاملة بالتجارة غير المشروعة أدى، ولا ريب، إلى ادعاء البراءة والمطالبة بالتعويض وبإعادة السلع، وإلى أعمال الثأر والعنف. وفي عام 1311 وجه الملك هنري مذكرة إلى مجلس فينّا حول موضوع استعادة الأراضي المقدسة، وفيه ذكر لحكاية قيام جنوى بأعمال الثأر حين اعترض الإسبتارية في رودوس أحد قواديسها وهي في طريق العودة من الإسكندرية. كذلك فيه عرض لجهوده لوقف التجارة مع الموانىء الإسلامية. وفي عام 1329 تمّ الاتفاق على أن مطالب تجار جنوى الذين يزعمون أنهم اتهموا زوراً بالتجارة غير المشروعة يجب أن ترفع إلى البابا ومع أن البابا، يوحنا الثاني والعشرين أصدر أحكاماً بت فيها بعض القضايا، فإن هنالك قضايا تعود إلى عهد الملك هنري وشقيقه، كانت في عام 1338 لا تزال بغير حل. ومنذ عام 1310، هنالك إثباتات على أن مسؤولين حكوميين أخذوا من التجار تعهدات بخسارة سلعهم بحال المتاجرة مع موانىء خاضعة لسلطان المماليك؛ والواضح أن السلطات القبرصية كانت تتشدد مع أي جنوي يعتقد أنه يخرق الحظر. وواضح، من ناحية ثانية، من المراسلات البابوية أن هنري وضباطه كانوا في أواخر عهده، يغضون الطرف عن القبارصة الذين كانوا يتاجرون مع المماليك.

إن المنافع التي نجمت عن فرض الحظر على التجار الغربيين الذين كانوا يقصدون الموانىء الإسلامية واضحة جداً، منها إتاحة المجال أمام التجار الذين اتخذوا لهم قاعدة في قبرص أن يتحركوا بحرية. وما دام الغربيون يعملون في التجارة مع سوريا، فإن قبرص لم تكن أكثر من ملاذ يتزودون منها بالمياه وبالمواد الطازجة، ويتاجرون بالمنتوجات المحلية، غير أن الحدّ من الوصول إلى الموانىء الهامة فتح المجال أمام فمغوستا كي تتحول إلى مستودع رئيسي. هنا كان التجار المحليون يأتون بالسلع الآسيوية ويبيعونها لإعادة تصديرها إلى أوروبا. بذلك كانوا يثرون، وكانت الخزانة الملكية تفرض الضرائب، وبنتيجة ذلك أخذ الاقتصاد القبرصي يتطور ويزدهر ككل حيال طلب الخدمات اللازمة لهذه التجارة. غير أن الملك ومستشاريه كانوا، من ناحية ثانية، يدركون القيمة العسكرية لحرمان السلطنة من المواد الحربية، لا سيما من الرقيق المملوك الذين كانوا ينقلون إلى مصر وهم في سن صغيرة، ويدربون كي يكونوا النخبة في الجيش. ويعود الكثيرون من هؤلاء الرقيق في الأصل إلى أواسط آسيا؛ كانوا ينقلون إلى مصر من موانىء البحر الأسود على سفن المسيحيين. وفي مذكرة حول الموضوع عام 1311 ندّد الملك هنري «بهؤلاء المسيحيين الأشرار المزيفين» الذين كانوا يشحنون الرقيق، والخشب، والحديد، والقار، والمؤن والحاجات الضرورية الأخرى للمسلمين؛ ثم ذكر بعد ذلك أن حرسه كانوا في الصيف السابق قد اعترضوا قادوساً جنوياً يحمل الخشب من آسيا الصغرى إلى مصر. وأصبح منع السفن الأوروبية من نقل الرقيق موضوعاً تردد صداه في مذكرة تالية قدمها السفراء القبارصة إلى البلاط البابوي عام 1323. كذلك كان هنري على استعداد للتصدي للسفن الإسلامية. وفي عام

1311 زعم أن قواديسه حققت نجاحات عديدة في هذا المجال؛ وبين أحداث عام 1318 يذكر الراوي أن أسطولاً صغيراً، وجّه لمحاربة المسلمين أحرق أحد تجارهم.

والمشكلة هنا هي أن قبرص كانت تفتقر إلى الموارد اللازمة لحماية البحار بصورة وافية، كي لا نقول، لاضعاف السلطنة المملوكية في البر. والمذكرتان اللتان وضعتا في عام 1311 وعام 1323 كانتا مبنيتين على أساس أن العون الغربي ضروري لكل عمل عسكري مسيحي فعال في الشرق؛ كذلك شددت المذكرتان على أن الوجود البحري القوي للسيطرة على مياه شرقي البحر الأبيض المتوسط والحيلولة دون وصول المؤن إلى المماليك هما الشرط الأساسي اللازم قبل شن أي هجوم عام لاستعادة الأراضي المقدسة؛ وهي نظرة كانت في أساس المخطط الأصلي لحملة الإسبتارية عام 1309 ـ 1310، إلا أنها كانت كذلك تفترض أن العائلة المالكة الفرنسية هي التي ستقود أية حملة رئيسية إلى الشرق. تراث سانت لويس كان لا يزال حياً في أذهان ملوك آل كابيه، بحيث إن روحية هذه الملكية كانت وثيقة الارتباط، متداخلة، بطبيعة الصليبية. وفي مجلس فيّنا سنة 1312 أعلن فيليب الرابع ملك فرنسا أنه سيقود حملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة، وفي السنة التالية حمل الصليب هو وأبناؤه لتنظيم حملة تقرّر أن تنطلق في ربيع عام 1319. على أن هنالك أسباباً عديدة جعلت الحملة الصليبية الواسعة النطاق غير عملية؛ ولم تتحقق بالتالي، غير أن الملك فيليب الخامس جهّز عشرة قواديس بقصد توجيهها إلى قبرص حيث يمكن أن تتصدى للسفن المتعاملة مع مصر. عند هذا الحد تدخل ملك صقلية من سلالة أنجو وأقنع البابا بأن يسمح له باستخدام هذه السفن في مهاجمة جنوى؛ على أنها فقدت في معركة

بحرية خلال الحملة اللاحقة. وفي عام 1323 اندفع تشارلز الرابع، خلف فيليب، في تنظيم أسطول ثانٍ؛ غير أن المخططات أخفقت، ووجد الملك نفسه على خلاف مع البابوية حول التمويل. وتجمعت السفن، لكن المشروع انهار حين نشب في نهاية تلك السنة نزاع بين فرنسا وإنكلترا حول غاسكوني.

إن الاستعدادات الفاشلة عام 1323 جرت في خلفية أنباء مقلقة من الشرق. في عام 1315 كان السلطان قد ضاعف الجزية التي كان ملك أرمينيا الصغرى يدفعها له منذ عام 1297؛ ثم أدّى تكرار التقصير بالدفع إلى حملات تأديبية؛ وفي عام 1322 اجتاح المماليك «أياس»، ميناء المملكة الرئيسي. عند ذاك فقط بعث هنري بالعون، وتمكنت سفنه من نقل عدد من الناجين من أياس إلى قبرص. لقد سبق للأرمن أن طلبوا النجدة من البابا، وها إن القبارصة يوجهون نداء جديداً إلى الغرب بعد تهديد المماليك بغزو مملكة هنري عقاباً له على ما قدّمه من عون. وفي نهاية عام 1322 وافق البابا جون 22 على الدعوة في أنحاء البلاد المسيحية الغربية إلى حملة صليبية لدعم قبرص وأرمينيا. غير أن المطلوب حقاً هو الوجود البحري الغربي الدائم في الشرق لوقف التجارة غير المشروعة، وتأمين العون لأرمينيا، ومنع غزو قبرص.

حيال ذلك لم يكن تشارلز الرابع يقترح غير تدبير مؤقت يقضي بإرسال عمارة بحرية إلى الشرق لمدة سنة واحدة. وفي هذا الإطار أشار المعاصرون إلى أن مثل هذه الحملة لن تبقى في المياه الشرقية غير بضعة أشهر على أكثر تعديل وبذلك لن يتسنى لها أن تحقق شيئاً ذا أهمية. إن وجودها لن يؤدي إلا إلى إغضاب السلطان، لا غير. وبالتالي لم تجرِ أية

حملة. وفي عام 1323 عقد الأرمن والمماليك هدنة؛ واستعيدت أياس، وعاد اللاجئون إلى بلادهم، وانكفأ التهديد الذي تعرضت له قبرص.

لقد كانت مساعدة هنري العسكرية لأرمينيا في عام 1322 لافتة للنظر بصورة خاصة بسبب العلاقات الرديئة التي سادت بين المملكتين منذ إطلاق سراحه سنة 1310. إن ظروف أسره توفر التفسير الكافي لموقفه المعادي؛ على أن أحداثاً مثل الملجأ الذي أمنه «أياس» لسفن جنوى التي غزت بافوس عام 1312، لا بد أنها زادت الوضع حدة. ولعل التنافس التجاري بين «أياس» المدينة المسيحية الوحيدة ذات الأهمية على الساحل المشرقي بكماله، من جهة، وفمغوستا، من جهة ثانية، أسهم في توليد هذا الاستياء. وفي عام 1318 تقريباً اصطدمت المملكتان، لا سجل لما حدث، لكن البابا جون 22 كان في عام 1319، ثم في عام 1320، يناشد هنري وأوشين للتقيد بهدنة تمّ الاتفاق عليها، ثم ألمح في عام 1321 إلى حرب بين قبرص وأرمينيا حالت دون تنفيذ أوامر بابوية صادرة قبل أربع سنوات. وظلّ حتى عام 1323 يسعى كي يحمل هنري وملك أرمينيا الجديد ليو الخامس، على التوصل إلى اتفاقية سلام. ويتصل بهذا النزاع أشد اتصال رفض هنري الالتزام بتعهدات كان قد قطعها عام 1310 بخصوص أرملة أموري وورثته. لقد جردوا من أراضيهم في قبرص؛ والظاهر من رسالة بابوية أن هنري كان في عام 1319 لم يفِ بوعده بتسديد ديون أموري. وفي عام 1323 كان امتناعه عن تنفيذ معاهدة عام 1310 لا يزال موضوع جدال.

ولعل هذه التوترات بين المملكتين أسهمت كذلك في توتير العلاقات بين فرسان سانت جون والأرمن. لقد كان الإسبتارية أنصاراً أشداء

لهنري أثناء اعتقاله، وفي عام 1310 كان الملك أوشين على استعداد للاعتقاد بأنهم هم المسؤولون عن مقتل أموري. وفي عام 1318 تدخل البابا لوقفه عن إرباك المنظمة، إلا أنه تبين في وقت لاحق أنه استولى على ممتلكاتها في أرمينيا. ولئن كان هؤلاء الفرسان، على ما هو معروف قد استعادوا بعض ممتلكاتهم واشتركوا في الدفاع عن أرمينيا في عام 1322، إلا أن هنالك ممتلكات أخرى ظلت محتجزة سنوات طويلة تالية. ثم نالوا ما يعد أكثر من تعويض باستيلائهم على ممتلكات الداوية في قبرص. كان التحقيق في أوضاع الداوية المحتجزين في قبرص قد بدأ في عام 1310، والظاهر أنه استمر خلال عام 1311. وفي وقت لاحق من هذا العام أمر البابا بمحاكمة جديدة، لكننا لا نعلم أن المحاكمة توصلت إلى نتيجة. وألغيت المنظمة رسمياً في مجلس فينا في آذار عام 1312؛ وفي نوفمبر عام 1313 تليت رسائل تعلن حظر الداوية ونقل ممتلكاتهم إلى الإسبتارية في اجتماع عقد في كاتدرائية نيقوسيا. لا ريب أن ذلك جاء شهادة على جودة العلاقات التي كان الإسبتارية يتمتعون بها مع الملك هنري، بالمقارنة الحادة مع ما حدث في أماكن عديدة في الغرب، إذ إن نقل الممتلكات تم على الفور. وعنى ذلك أن فرسان سانت جون أصبحوا أكبر المالكين العقاريين في الجزيرة بعد الملك. وفي عام 1317 صارت مديرية الإسبتارية في قبرص مدينة بمبلغ 60000 بيزنت في السنة إلى مركز المنظمة في رودوس.

كذلك عززت المنظمة المبادرة الدبلوماسية ذات الأهمية الكبرى في القسم الأخير من عهد هنري. وهي مفاوضات مع آراغون أدت عام 1315 إلى زواج شقيقة الملك ماريا، من الملك جايمس الثاني. والظاهر أن فكرة هذا الزواج نشأت من محادثات بين موفدين آراغونيين وقبارصة

إلى البلاط البابوي عام 1311. عند ذاك تحقق تبادل السفارات، وفيها برز الإسبتارية بقوة، مما أدى في مايو عام 1314 إلى عقد الزواج.

لم تفلح الاتحادات السلالية في ترك أثرها على التطورات اللاحقة، إذ كانت قبرص، تتحرك في هذه الفترة في دائرة نفوذ أراغونية. يضاف إلى ذلك أن الجزيرة واصلت تمتعها بالعلاقات الطيبة بالبندقية. ولكن حكم هنري في قبرص بعد عام 1310 كان، بوجه عام، مثيراً للأسى، وكأن النزاعات المستمرة منذ زمن طويل مع جنوى وأرمينيا لم تكن كافية؛ وفي أبريل عام 1323، نجد البابا يطلب من بطريرك القدس أن يحقق الصلح بين هنري والإسبتارية. والظاهر أن هنري استحق الحرم لأنه عجز عن التصدي للتجارة غير الشرعية مع المسلمين، ولاعتقال رجال دين، وطمس رسائل بابوية.

شهد عهد هنري، رغم عيوبه الشخصية، تطورات ذات أهمية. فسقوط عكا وفقد سوريا اللاتينية لم يسفرا عن هجمات إسلامية على قبرص. كما أن الملك استطاع بفعل غزواته ومحاولات تنفيذ الحظر التجاري، أن يعبر عن رغبته في أن يلعب دوراً كاملاً في أية حملة صليبية في المستقبل. يضاف إلى ذلك أن النظام تجاوز أزمة سياسية رئيسية كان يمكن لها أن تنتهي بسهولة إلى حرب أهلية، لا بل إلى القضاء على السلالة. إن وجود توترات داخل الطبقة الحاكمة، وخلافات مع جنوى وأرمينيا، أمر جد طبيعي؛ ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى دور هنري غير المؤثر كملك، ولعله يعود إلى حد ما، إلى أنه نتيجة كوارث عام 1291. إن التعامل مع هذا الإرث ليس بالأمر السهل. لعل هذه المشكلة كانت أقل إرباكاً لأن عهد هنري كان بداية فترة ازدهار تجاري لا نظير له في تاريخ الجزيرة.

7

السياسات السلالية،
والتجارة، والحروب الصليبية،
1369 - 1324

في العشرينات من القرن الثالث عشر لم يعد التخوف من أن سلطنة المماليك ستتبع فتح فلسطين اللاتينية بغزو قبرص شغلاً هاماً رئيسياً. جيل قد مرّ على سقوط عكا، ولم يقع أي هجوم. ثم إن الغزوات البحرية التي حدثت أحياناً قامت بها السفن المسيحية لا الإسلامية؛ وبدلاً من الحصول على مساعدات مالية بابوية للدفاع، كانت الاعتمادات المالية تتدفق بانتظام من قبرص إلى الإدارة البابوية لتلبية حاجات البابوات المتتابعين. والواقع أن الجباة البابويين حصلوا بين عامي 1328 و1343 على ما مجموعه 55750 فلورن كضرائب على الكنيسة في الجزيرة. ومن ناحية أخرى، بقي الشعور قائماً بأن ملك قبرص هو في الوقت نفسه ملك على القدس. وقد سبق أن ذكرنا أن هيوغ الرابع، وبيتر الأول، وبيتر الثاني أقاموا لأنفسهم احتفالات منفصلة تتويجاً لكل منهم كملك على القدس. ثم إن ألقاب أمير أنطاكية، وكونت طرابلس،

وأمير الجليل عادت إلى الرواج بين أفراد العائلة المالكة. كذلك صار أفراد من الطبقة الارستقراطية يعينون في مناصب عسكرية سامية ولو أنها فخرية ذات صلة بالقدس. وقد رأينا أنه في زمن هنري الثاني وقعت هجمات على سوريا وفلسطين ومحاولات لتنسيق الجهود العسكرية مع المغول، كما أن سفراء هنري لدى البابا تقدموا في مناسبتين على الأقل بمقترحات لتدمير سلطنة المماليك. وكذلك حاول هنري تنفيذ الحظر التجاري بحراسة الممرات البحرية، مع أن فعالية هذه التدابير كانت محدودة. وكثيراً ما كان التجار الغربيون الذين يتعاملون مع المسلمين يحظون بتغاضي حكوماتهم إن لم يكن بتواطئها. كذلك كان هنري على استعداد للسماح لتجاره بالتعامل مع الموانىء الخاضعة للسلطات الاسلامية.

وفي السنوات القليلة الأولى من عهد هيوغ، وقعت تغيرات هامة. ففي العشرينات من القرن الرابع عشر بوشر بتوزيع الإجازات البابوية التي تجيز للتجار القيام بعمليات البيع والشراء في أراضي المماليك. وفي عام 1318 استولى حرس بحري قبرصي على شحنة من المصطكى خاصة بتاجر جنوي عامل من جزيرة خوص، متوجهة إلى مصر، على ما يبدو؛ أما في عا م 1320، ثم في عامي 1322 و1325 كان أصحاب خوص الجنويون ينالون تحليلات بابوية تجيز لهم بصورة خاصة أن يصدروا هذه السلعة إلى الإسكندرية، وفي عام 1326 تسلّم الجنويون إذناً بالاتجار في اللاذقية لفترة سنتين. وبينما كان هنري والمسؤولون لديه يلامون من قبل البابا جون 22 في أوائل العشرينات من القرن الرابع عشر على عجزهم عن إيقاف التجارة غير المشروعة، نجد أنه سمح لهيوغ الرابع في عام 1326 بأن يبعث القبارصة إلى السلطنة محملين بالسلع؛ وهنالك عدد من

أمثلة أخرى على أذرنات بابوية تعفي القبارصة من الحظر التجاري في العقود اللاحقة. وفي عام 1329 فوّض بطريرك القدس الجديد الذي كان على وشك الانتقال إلى قبرص بأن يحل أربعين شخصاً من حكم الحرم الذي يصدر في حقهم بصورة عفوية فورية لخرق الحظر التجاري. وبالنهاية بدأت قواديس دولة البندقية في منتصف الأربعينات من القرن الرابع عشر بالمتاجرة مع مصر على أساس منتظم؛ بعد ذلك يظهر أن البابوات باتوا أكثر اهتماماً بالرسوم على الإجازات أو على تحليل المعاملات التجارية بدون الأذونات منهم بالحفاظ على الحظر الاقتصادي.

ولا ريب في أن قبرص تمتعت بازدهار واسع في عهدي هنري الثاني وهيوغ الرابع. إن الوصف الذي تركه لنا لودلف سودهايم للغنى الذي عرفته الجزيرة حوالى 1340، وكنائس فمغوستا الكثيرة التي تعود إلى النصف الأول من القرن ولا تزال باقية حتى اليوم في حالات متفاوتة من الخراب، والإثباتات النقدية التي تشير إلى وفرة الفضة لدى معامل سك العملة، كل ذلك يؤكد هذه الحقيقة. كذلك لا ريب في أن هذه الوفرة كانت تعود في قسم كبير منها إلى وضع الجزيرة في نطاق التجارة الدولية، وفي الفصل السابق شرحنا أن البهارات والسلع الآسيوية الأخرى كانت بعد سقوط عكا مرغوبة في أوروبا الغربية وكانت تستورد عبر موانىء كيليكيا وسوريا بواسطة تجار وسطاء اتخذوا من فمغوستا مراكز لهم، ثم تباع للتجار الغربيين في فمغوستا نفسها. تلك كانت تجارة مزدهرة عاد نجاحها إلى حد ما إلى محاولات البابا منع التجار اللاتين من التجارة المباشرة مع المسلمين؛ ثم إن السلطات القبرصية شجعت ذلك إذ إنها بمحاولات تنفيذ الحظر تسنى لها أن توجه التجارة

بتخفيف الحظر البابوي على التجارة هناك.

وفي الثلاثينات وأوائل الأربعينات من القرن الرابع عشر بدا أن تجارة قبرص ظلت ناشطة. إن نشاط قواديس دولة البندقية في هذه الفترة يشير إلى أن عدد السفن ومستوى الاستثمارات في الطريق إلى فمغوستا كانا أدنى قليلاً مما هما في الطريق إلى القسطنطينية. وما أن امتنعت حكومة البندقية عن إرسال القواديس إلى أياس، المنافسة الأرمنية لفمغوستا، في عام 1334، لا سيما بعد أن سقطت أياس بأيدي المماليك عام 1357، حتى تركزت التجارة بين الشرق والغرب عبر شمالي سوريا وكيليكيا أكثر فأكثر على قبرص. على أن قواديس الدولة الجمهورية راحت منذ عام 1345، بعد أن أصبحت تبحر بأذونات بابوية للاتجار مع المسلمين، تتجه إلى الإسكندرية بانتظام. بعد ذاك ظلت البندقية تبعث العدد نفسه من القواديس إلى الشرق، بين ستة قواديس وثمانية، لكن نصفها فقط كان يتجه إلى قبرص، فيما كان القسم الباقي منها يتوجه إلى مصر. وفي السنوات الثلاث، 1357 ـ 1359، بلغ عدد القواديس الموجهة إلى الإسكندرية 14 قادوساً مقابل تسعة فقط إلى فمغوستا. إن هذه القواديس البندقية لم تكن تحمل غير جزء فقط من مجموع المبادلات التجارية بين الشرق والغرب، غير أن تحول المشحونات من قبرص إلى الإسكندرية كان دليلاً على انحراف عن الجزيرة. وإذا صح ذلك فهو تأكيد على الانطباع بأن السلع هنا كانت أقل كمية، مما يعني أن قبرص باتت أقل إغراء لأصحاب الاستثمارات والسفن الأوروبية من قبل.

أما التغير الآخر الهام بما كان له من مضاعفات بالنسبة إلى ازدهار

الجزيرة فهو الكارثة الديموغرافية التي جرت في منتصف القرن الرابع عشر وشملت كامل عالم البحر الأبيض المتوسط، لا قبرص وحدها فقط. ولا ريب أن الطاعون الأسود نزل بالجزيرة في عام 1348 بقوة، ولئن كنا نفتقر إلى الإحصاءات، فالمحتمل أن نسبة الوفيات هنا كما في الأمكنة الأخرى أدت إلى خفض السكان بما يتراوح بين الثلث والخمس. بعد ذلك توالت الأوبئة في الجزيرة بين وقت وآخر، كما في عامي 1362 و1363، وتواصل انخفاض السكان، وهو اتجاه ظل مستمراً حتى أواخر القرن الخامس عشر. وإذا كان أثر الطاعون الأسود والأوبئة اللاحقة في النشاط التجاري هو موضوع نقاش، فلا ريب أن اقتصاد المنطقة أصيب بالانكماش بتناقص المنتجين والمستهلكين في بلدان البحر الأبيض المتوسط. حقاً إن هنالك عائلات خاصة، أو مجموعات بشرية معينة كانت أحسن أوضاعاً، وأقدر على شراء السلع الأجنبية، غير أن حجم التجارة الدولية وقيمتها انخفضا رغم ذلك. لا بد أن نقص عدد السكان أثّر في كل نواحي النشاط الاقتصادي؛ كذلك خلت أراضٍ من السكان، وقلت اليد العاملة. وفي قبرص كانت فمغوستا، وهي ذات اقتصاد يعتمد بقوة على التجارة البحرية، ومكان غير صحي عادة، قد أصيبت إصابة شديدة.

لا بد أن تغيير الطرق التجارية بالإضافة إلى التأثيرات الاقتصادية التي تركها الطاعون الأسود عنى خفضاً كبيراً عاماً في حجم التجارة مع الجزيرة. ومن المحتمل حيال ذلك أن قبرص، لا سيما ميناء فمغوستا خاصة، كانت قبل أن بدأ بيتر الأول حربه مع السلطنة في عام 1365، وقبل غزو جنوى عام 1373، قد أخذت تظهر دلائل ركود. إن إنتاج المسكوكات السنوي في عهد بيتر كان أقل مما كان عليه في بداية القرن،

مما يدل على أن الاقتصاد كان قد أخذ يتباطأ. ومن النتائج المباشرة لانخفاض القيمة التجارة تدني دفق الدخل الجمركي والرسوم التجارية الأخرى على الخزينة المسلكية. وفي ظل هذه الخلفية يجب النظر إلى العلاقات بين هيوغ الرابع وبيتر الأول والأوساط التجارية الغربية. لقد كانت قبرص بحاجة إلى الغربيين: ازدهار الجزيرة يتوقف مع امتناع الغربيين عن التوافد إليها. ثم إن للغربيين أهمية من ناحية أخرى، هي الناحية الأمنية. المداخيل التجارية الناجمة عن ذلك تسهم .في تأمين نفقات الدفاع؛ والسفن يمكن استخدامها للتصدي للناهبين، أو لنقل السلاح والجنود. وإذا توقفت قبرص، لأي سبب، عن جذب تجار الغرب إليها، فإن أوروبا الغربية لن تجد بعد ذلك أي حافز للدفاع عن الجزيرة في وجه الهجوم الإسلامي. ومن شأن أي دليل على أن التجارة البحرية متدهورة أن يكون مثيراً لقلق كبير؛ وليس من المستغرب أبداً أن تكون العلاقات بين الحكومة والتجار موضوعاً دقيق الأهمية.

وخلال العقود الوسطى من القرن الرابع عشر ظلت السلطات القبرصية على علاقات مع البندقية أفضل منها مع أية أوساط تجارية أخرى هامة. وبعد أن تسلم هيوغ الرابع العرش مباشرة، نشأت مشاكل حول امتيازات الجمهورية التجارية في الجزيرة، وعمدت البندقية في إحدى المراحل إلى دعوة تجارها لمقاطعة قبرص. غير أن الملك ثبّت في عام 1328 تلك الامتيازات التي سبق لأموري الصوري أن منحها في عام 1306؛ بعد ذلك راحت العلاقات تتحسن. وكما سنرى، أخذ هيوغ يتعاون مع الجمهورية في عقد اتفاقات مناهضة للأتراك منذ الثلاثينات من القرن الرابع عشر، وعملت البندقية بين الوقت والآخر على الإعراب عن تقديرها لذلك بمنح المواطنية لقبارصة بارزين أو

لغربيين برزوا في الخدمة الملكية. إلا أن خلافاً في فمغوستا عام 1349 تناول تاجراً من البندقية وآخر من صقلية، تحول إلى شغب عام حاد قام به السكان المحليون والكثيرون من المسؤولين الملكيين، وفقاً لتقرير وضعه شخص من البندقية، باقتحام مستودعات الجمهورية، وفتحوا صناديق المدونات الرسمية، وأثخنوا بالجراح ما لا يقل عن ثلاثين شخصاً من البنادقة، وضربوا القنصل. وفي البداية طالب البنادقة بالثأر، وبالتعويضات، وبالمزيد من الحماية لجماعتهم، لكنهم أضافوا إلى ذلك، في إشارة تساهل هامة من جانبهم، إلى أن أي شخص منهم يتبين أنه مسؤول بالنسبة إلى ما حدث، يجب أن يعاقب بما يرضي الملك. ثم حين علموا بأن الملك فرض العقوبات الوافية على القائمين بالشغب، تنازلوا، عن المطالبة بالمزيد من التعويض. لا ريب أن التوتر ظل قائماً بين التجار والسكان المحليين، على أنه لم تكن هناك أية رغبة على المستوى الحكومي في السماح لمثل هذا النزاع أن يتحول إلى خلاف كبير.

وفي وقت باكر من عهده، في عام 1360، جدّد بيتر الأول امتيازات البندقية، وأوضح في الوقت نفسه مسائل عديدة تتعلق بالتشريع بخصوص مواطنين من البندقية؛ إلا أنه كان محتوماً، ولا ريب، أن تؤدي هذه الامتيازات إلى نزاعات. وفي عام 1361 شكا القبارصة من أشخاص ادعوا بأنهم بنادقة، ومن تجار استوردوا بضاعة لا تخص البنادقة وطالبوا زوراً بالإعفاء من الرسوم الجمركية، ومن سفن للبندقية تشحن ركاباً قبارصة من غير أن يحملوا أوراق الخروج المطلوبة. غير أن هذه الشكاوى لم تكن ذات أهمية كبيرة. وفي ديسمبر، عام 1362، ثم بين أواخر عام 1364 ويونيو عام 1365، أقام بيتر في البندقية بالذات. وشعر

البنادقة بالامتنان منه على مبادرته أثناء ثورة كريت عام 1363 ـ 1364، ومنحوه شروطاً سخية لنقل قواته الصليبية إلى الشرق. إلا أن هذا التقليد الطويل من الانسجام والتعاون انتهى فجأة عند تدمير الإسكندرية من قبل بيتر وقواته الصليبية.

وبالمقارنة مع ذلك كانت العلاقات بين قبرص وجنوى رديئة باستمرار منذ القرن الثالث عشر. وقد رأينا إن الاضطرابات العنيفة كانت تتخلل عهد هنري الثاني، بين الوقت والآخر، حتى إن العنف كان يواصل رغم معاهدات عام 1329 وعام 1338، لتسوية الخلافات القائمة. وهنالك ما يثبت ثورة الجنويين بالاضطرابات في عام 1331، ونشوب القتال بين الجنويين والبنادقة في فمغوستا حوالى 1344 و1368. وفي عام 1343 ـ 1344 ثم في عام 1364 ـ 1365، كانت حكومة جنوى تستعد للحرب مع قبرص. لا نعلم بالضبط ما هو الدافع إلى الأعمال العدائية في الأربعينات من القرن الرابع عشر، رغم أن شروط الصلح المقترحة عام 1344 كانت معنية بالدرجة الأولى بإعادة توضيح شروط امتيازات هنري الأول التجارية في عام 1232، وهي تكشف النزاعات المتواصلة بين الضباط الملكيين وتجار جنوى. وفي عام 1364 كانت قبرص وجنوى أمام خطر نشوب نزاع واسع النطاق، على أثر فتنة عنيفة في فمغوستا. والظاهر، كما قال ليونتيوس مخيراس، إنها بدأت حين حكم على اثنين فرّا من سفينة قبرصية بقطع أذنٍ لكل منهما. زعما أنهما مواطنان جنويان، وهما لذلك لا يخضعان لحكم البلاط؛ عند ذاك أعلن العصيان فريق جنوي في القادوس الذي كان على وشك نقل المؤونة إلى ساتاليا، وفر بالسفينة إلى خوص. ودبر المندوب الجنوي أمر إعادة القادوس، لكن المرتزقة الصقالبة في سفينة قبرصية أخرى صعدوا إليه

لدى اقترابه من قبرص وقتلوا بعض البحارة فيه. عند ذاك حدث شجار خطير بين المندوب واثنين من كبار المسؤولين الملكيين في فمغوستا، هما القيم جون سواسون والأميرال جون الصوري، وأريق المزيد من الدماء. ودعا المندوب جميع الجنويين إلى مغادرة قبرص ثم ثبت هذا الأمر في وقت لاحق من العام حين أتى جنوي من أوروبا لإجراء التحقيق. آنذاك كان بيتر في الغرب يعد العدة لحملته الصليبية، واتخذ البابا الذي خشي أن تعطل الحرب مع جنوى احتمالات قيام الحملة، خطوات سريعة لإعادة السلام. وفي أبريل عام 1365 عقدت اتفاقية في جنوى مع موفدي الملك الذين ارتضوا جميع المطالب الجنوية. هنا اضطر القبارصة إلى توسيع الامتيازات التجارية التي كان تجار جنوى يتمتعون بها؛ واضطروا، أمام القبول بشروط أكثر إذلالاً، أن يرضخوا لجميع مطالب الجنويين. اضطر القبارصة إلى توسيع الامتيازات التجارية التي كان يتمتع بها الجنويون، وكان عليهم أن يقبلوا بين الشروط الأكثر إذلالاً أن ينفى الضابطان الملكيان اللذان كانت لهما صلة بالقضية.

واضح أن السلطات الجنوية كانت خلال هذه السنوات منهمكة في سلسلة من النزاعات المتمادية مع الحكومة القبرصية حول حقوق غامضة يتمتع بها تجارها. من هم الجنويون؟ كيف كانت مشاكل حاملي الجنسية الجنوية غير المثبتة تحل؟ إننا نعلم أن جنوى كانت تعتبر سكان مستعمراتها في مناطق بحر إيجه والبحر الأسود، والمتحدرين من سكان الأحياء الجنوية في موانىء سوريا اللاتينية رعايا جنويين. كانت غالبية هؤلاء الناس الموسومين بالجنويين البيض ذوي علاقة غامضة وضعيفة بجنوى نفسها، لكنهم كانوا، ما لم يتهموا بالسرقة والخطف والقتل،

يخضعون لسلطة المندوب الجنوي لا للسلطات القضائية الملكية. وبين هؤلاء عائلات بارزة في المدن. ولا ريب أن إعفاء هؤلاء كان مثيراً للحقد الشديد. ومنذ القرن الثالث عشر كان الجنويون يتمتعون بحرية التجارة وبالإعفاء من الرسوم، غير أن مدى مراقبة المسؤولين القبارصة لنشاطاتهم، والتثبت من أنهم لا يتجاوزون حقوقهم، كانا مصدراً دائماً للنزاع. ولعله من المحتمل أن القبارصة كانوا يسعون للحدّ من الحرية التي منحوها للجنويين، فكانت ردة فعل الجنويين قوية بوجه أية محاولات للتضييق على تجارتهم ولعرقلة مكاسبهم.

وواضح أن تجار قطلونيا كانوا يتاجرون بانتظام في قبرص وفي الإسكندرية. وكان إخوانهم في المواطنية ممن يمارسون القرصنة مصدراً للإزعاج، غير أنه ليس هنالك ما يوحي بأن للتجار العاملين ضمن القانون شكاوى رئيسية، أو بأنهم كانوا يسببون المشاكل. ومن ناحية أخرى، كان تجار جنوبي فرنسا الذين يتاجرون عبر مونتبيلييه متورطين في نزاع طويل بخصوص الرسوم التي ينبغي أن يدفعوها. الصواب والخطأ بالنسبة إلى هذه المسألة التي أثيرت لأول مرة في عام 1352، غامضان، غير أن أهالي مونتبيلييه طلبوا من البابا عام 1362 أن يكتب لبيتر الأول بخصوص هذا الموضوع، والظاهر من المراسلات أن المسؤولين كانوا يفرضون ضعف المبلغ الذي يعتقد التجار أنه يجب أن يفرض. وفي عام 1363 وجه بيتر التعليمات بوجوب فرض الرسوم بالمستوى نفسه الذي كانت عليه في عهد والده، وفي عام 1365 منح امتيازاً جديداً هو على ما يظهر موافقته على مطالب أهل مونتبيلييه. كانت منحتهم الأساسية قائمة منذ عام 1236؛ والظاهر من الإشارات المنثورة إلى نشاطاتهم أنه كان لرجال مونتبيلييه والموانىء الأخرى في جنوبي

فرنسا، دور هام في تجارة الجزيرة، ولو أنه لم يكن بمستوى دور أبناء البندقية وجنوى.

وتزامن القسم الأول من عهد هيوغ الرابع مع نهاية الوهم بأن السلالة الفرنسية المالكة ستؤمن القيادة والموارد اللازمة لاسترجاع الأراضي المقدسة. والفكرة أن فرنسا تريد، وتستطيع، إعادة توطيد الحكم المسيحي في الشرق نشأت وترسخت في عهد فيليب الرابع وأبنائه في الربع الأول من القرن. إلا أن شيئاً من ذلك لم يتحقق أبداً. الفورات الدورية من النشاط الإعلامي والدبلوماسي والإداري فشلت في تحقيق أية حملة صليبية؛ الصعوبات العملية في وجه ذلك كبيرة جداً؛ وثمن الفشل رغم إخلاص النيات الفرنسية كبير كذلك؛ ومشروعات تشارلز الرابع تجمّدت عام 1323؛ وقبل عام 1331، مع بداية عهد الملك الجديد، فيليب السادس، لم يتقدم أحد بمخطط جديد لتحرير القدس. ومرد هذه المبادرة الجديدة في ناحية منها إلى حفز من بطريرك القدس الذي عاد إلى فرنسا بعد أن رافق ماريا البوربونية إلى قبرص لتزويجها من غي لوزينيان، واستغل مناسبة وجوده في الشرق لزيارة فلسطين والقاهرة. وفي آخر سنة 1331 وافق البابا على التبشير في فرنسا من أجل الحملة الصليبية لكنه لم يتوصل قبل عام 1333 إلى اتفاق مع الملك بخصوص الترتيبات المالية بحيث يمكن للإعدادات أن تبدأ بصورة جدية، بيد أن المخططات تعثرت مرة أخرى. عجز فيليب عن جمع ما يكفي من المال بسرعة؛ ثم إن خطر نشوب الحرب مع إنكلترا وانعدام الحماس البابوي لهذه العملية نسفا احتمالات نجاحها. وفي سنة 1335 هاجم المماليك مملكة أرمينيا؛ وفي يناير من العام التالي أمر البابا بوقف

الدعوة للحملة الصليبية في قبرص بحجة أنها تثير الاستفزاز الخطر. ثم ألغى المشروع بكامله في مارس بصورة رسمية. بعد ذلك استخدم المال الذي جمع في فرنسا والأسطول الفرنسي الذي كان يجمع للتصدي للإنكليز في المرحلة الأولية لحرب المائة سنة.

وفيما كانت المخططات لهذه الحملة الصليبية التي لم تتحقق، لا تزال جارية، كانت قبرص قد أخذت تعنى بميدان آخر من النشاطات. ملوك فرنسا كانوا يفكرون في إطار استعادة الحكم المسيحي في الأراضي المقدسة، ولكن البنادقة وفرسان سانت جون في رودوس كانوا أكثر اهتماماً بتنامي القرصنة التركية، وبالخطر على الممتلكات المسيحية وعلى الملاحة المسيحية التي نشأت عن إمارات الغازي في غربي الأناضول. إن فكرة القيام بعمل موحد مركّز بوجه الأتراك عائدة في نشأتها إلى أواسط العشرينات من القرن الرابع عشر، غير أن المناورات الدبلوماسية اللازمة للجمع بين الأطراف المعنية استغرقت وقتاً. في البداية ركّز البنادقة على تشكيل رابطة بحرية مسيحية بالتحالف مع رودوس وبيزنطية؛ بعد ذلك أقنع فيليب السادس والبابا جون 22، بالمساهمة في الرابطة. وفي نظرهما أن الحملة المقترحة مجال أساسي هام لتمهيد السبيل أمام حملة فيليب الصليبية المقترحة إلى القدس. ثم إن هيوغ الرابع دخل طرفاً آخر في التحالف، إذ وافق مجلس شيوخ البندقية على دعوته إلى المساهمة في نوفمبر عام 1333، وبذلك أصبحت الرابطة التي باتت تضم البندقية ورودوس وفرنسا والبابوية وبيزنطية وقبرص، مكتملة، وكان على قبرص أن تقدم ستة قواديس من مجموع أربعين. وفي أواخر صيف عام 1334 قام الأسطول المسيحي الموحد بسلسلة من الهجمات على الملاحة التركية في بحر إيجه انتهت بالانتصار في خليج أدرميتيون. وجاء هذا

التحالف ثم الحملة التي أعقبت ذلك دليلاً على توجه جديد ذي مغزى. وإذا كانت الجهود البابوية لتنظيم رابطة مماثلة لعام 1335 قد فشلت في تحقيق أي تقدم، فإن فكرة العمليات البحرية المشتركة ظلت بارزة، لا سيما بعد انهيار المخططات الفرنسية لحملة صليبية واسعة النطاق على فلسطين.

عند هذا المنطلق بدا أن هيوغ أصبح أشد تورطاً إلى درجة متزايدة، في الصراع مع الأتراك. وفي عام 1337 واجهت المصالح المسيحية في الشرق نكسة كبيرة حين استولى المماليك على ميناء «أياس» الأرمني؛ غير أن الملك حقق في تلك السنة نفسها نصراً هاماً على الأتراك؛ وبعد سنوات قليلة لحظ لودولف سودهايم الذي كان يزور قبرص أن علايا، وأنامور، وسيق، وساتاليا، أي أن مساحة كبيرة من سواحل آسيا الصغرى الجنوبية الخاضعة للأتراك، كانت تدفع الضريبة لقبرص. حيال التجزؤ الناجم عن هذه النجاحات وبسبب القلق من استمرار الغزوات على الأراضي المسيحية والملاحة المسيحية، أخذ هيوغ المبادرة سنة 1341 بإيفاد لمبرتينو ديلاسيكا، أسقف ليماسول، في بعثة إلى رودوس، والبندقية، وافينيون لاقتراح تحالف مسيحي جديد. ولمبرتينو هذا من بولونيا؛ عمل لدى البابا عضواً في السفارة التي أسهمت في مفاوضات زواج غي لوزينيان وماريا البوربونية، ثم مندوباً ملكياً في البلاط البابوي في عهد بندكت الثاني عشر. وقد عنت خبراته الدبلوماسية الماضية، والنظرة العالية التي كان ينظر بها إليه في أفينيون، كما ثبت عند تعيينه في أسقفية برسيا عام 1344، أنه مؤهل جيد التأهيل لإجراء هذه المفاوضات.

وكانت ردة الفعل في البندقية ودية لكنها مفتقرة إلى المضمون، وقبل

بداية عام 1343، وبعد ضغط من قبل البابا الجديد كلمنت السادس، وافق البنادقة على الرابطة التي تألفت آنذاك منهم، ومن القبارصة، والإسبتارية والبابوية. كانت عملية تشكيل هذه الرابطة متعبة، إذ كان لا بد من سفارة قبرصية أخرى إلى البلاط في صيف عام 1343. وفي ربيع عام 1344 استطاعت القوى المتحالفة أن تجمع قواتها البحرية معاً. ووضعت كلها تحت قيادة هنري أستي، بطريرك القسطنطينية اللاتيني؛ وفيها أسهمت قبرص بأربعة قواديس من أصل عشرين قادوساً.

واجتمعت القوات المسيحية في نيغروبونتيه، وفي مايو دمرت أسطولاً تركياً هاماً في بالينا، على النتوء الغربي من شبه جزيرة شلكيديكيه. وفي نهاية أكتوبر، اجتاحت ميناء أزمير الذي كان حتى الآن مركزاً رئيسياً لانطلاق عمليات النهب التركية في البحر. وبحق وصف الاستيلاء على أزمير بأنه «النجاح الإيجابي الدائم الذي أنجزه التعاون اللاتيني في المشرق أثناء القرن الرابع عشر»؛ هنا بقي المسيحيون حتى عام 1402؛ على أنهم لم يحتلوا غير منطقة الميناء فقط، ثم تبين لهم أنه يستحيل عليهم تحقيق أي تقدم. وفي يناير عام 1345، قتل عدد من القادة بمن فيهم هنري أستي في اقتحام مفاجىء، وقائد القوات القبرصية، كما ذكر أحذ الرواة. بعد ذلك باتت محاولات دعم الاتحاد المسيحي تصنف تحت ضرورة الدفاع عن هذا الموقع الهام الخطر على ساحل بحر إيجه في آسيا الصغرى. ومع أن تشكيل الرابطة عام 1344 يعزى بالدرجة الأولى إلى البابا كلمنت السادس، فالواقع أن مشاركة الملك هيوغ بنشاط في إنشائها دليل واضح على عزمه على مقاومة الزحف التركي وعلى إدراكه أن سلامة مملكته تتحقق على أفضل وجه بالتحالفات مع تلك الدول الغربية التي له معها مصلحة مشتركة في

حماية الممرات البحرية إلى أوروبا.

وتواصل اهتمام هيوغ. وفي عام 1346، أثناء حملة همبرت فينّوا، أوضح أن التحالف المسيحي يجب توسيعه، إذا ما وافق الأعضاء الآخرون فيه؛ ولئن لم يكن هنالك إثبات محدد على مساهمة القبارصة في النصر البحري على الأتراك في معركة أمبروس عام 1347، فالظاهر أن الملك القبرصي استمر في تأمين السفن للعمل في بحر إيجه حتى عام 1348 حين عقدت هدنة مع حاكم أفسس التركي. وفي أية حال كان الجهد المسيحي بعد احتلال أزمير قد نفد زخمه. إن فشل حملة همبرت، والمشاعر السيئة المتبادلة بين الإسبتارية والبنادقة، وانتشار الطاعون الأسود عام 1347 ـ 8، بالإضافة إلى تردد الإسبتارية في تسلم كامل مسؤولية الدفاع عن أزمير، كل ذلك أضعف الزخم الأول. إلا أن ذلك لم يحل بعد استئناف الهجمات التركية دون إحياء الرابطة في أغسطس عام 1350. فقد تعهدت قبرص بتجهيز قادوسين، وأن تقدم كل من البندقية ورودوس ثلاثة قواديس لحراسة ساحل آسيا الصغرى خلال السنوات العشر التالية؛ كذلك اتفقت الأطراف على أن تتقاسم مع البابا نفقات حماية أزمير.

على أن الحرب بين البندقية وجنوى اندلعت قبل التمكن من وضع هذه التدابير في حيز التنفيذ؛ وفي سبتمبر عام 1351 اضطر البابا كلمنت إلى الاعتراف بأن التحالف تعثّر وبأن المتحالفين لم يعودوا ملزمين بتعهداتهم لتقديم السفن والمال. وفي الوقت نفسه أبلغ رجال الدين القبارصة وجوب التوقف عن التبشير بالحملة الصليبية في الجزيرة بسبب الطاعون، على أنه ظل رغم ذلك يتوقع من هيوغ أن يبذل وسعه للمساعدة في الدفاع عن أزمير؛ كذلك أبدى خلفه أنوسنت السادس

(1352 ـ 1362) أنه مثله مصمم على الحفاظ على الاحتلال المسيحي وإبقاء الرابطة قائمة. وفي نوفمبر عام 1353 طالب البابا الجديد الملك هيوغ، وحاكم البندقية وصاحب الإسبتارية أن يسدد كل منهم مبلغ 3000 فلورين باعتباره متوجباً عليه في الدفاع عن ازمير؛ وهنالك ما يدل أنه استعمل هذه الأموال فعلاً لتنظيم الإمدادات للحامية. وفي عام 1355 عاد البابا إلى ملاحقة هذه الدول لدفع المتوجب السنوي، 3000 فلورين؛ والظاهر من المراسلات البابوية في ذلك العام أن هيوغ اعتبر نفسه ملزماً بتوفير هذا المبلغ نقداً، وبتجهيز القادوسين اللذين وعد بهما عام 1350. كذلك يتبين أن البابا كان يخصص مبلغ 3000 فلورين من الضرائب الكنسية المجموعة في قبرص باعتبارها قسماً مما عليه للحفاظ على موطىء المسيحيين في أزمير. وفي عام 1356، مع انتهاء الحرب مع جنوى، اتصل البنادقة بأنوسنت بقصد إعادة تنشيط الرابطة. عند ذاك كتب البابا إلى السلطات في البندقية وقبرص ورودوس يطلب منها تزويد القواديس كما هو منصوص عليه سنة 1350، وإيفاد سفارات إلى أفينيون للتفاوض لعقد معاهدة. وأخيراً، في 20 مارس 1357، حددت الرابطة لخمس سنوات. تعهد كل من البندقية والإسبتارية وقبرص بتأمين قادوسين لحراسة البحار. وتوقع البابا من كل طرف من هذه الأطراف أن يقدم بالإضافة إلى ذلك مبلغ 3000 فلورين في السنة للدفاع عن أزمير.

ولعرض تاريخ مساهمة قبرص في الرابطات البحرية للأربعينات والخمسينات من القرن الرابع عشر، نعتمد بكثرة على المراسلات البابوية المتبقية التي توضح لنا الكثير مما كان البابوات يتوقعونه، لكنها لا تذكر الكثير مما كان يتم تنفيذه فعلاً. وفي أية حال إن فعالية مجموعة من 6 ـ 8

قواديس عاملة في بحر إيجه لصد الهجمات والقرصنة التركية أمر مشكوك فيه. إلا أن الملك كان بالفعل ينظر إلى مسؤولياته بصورة جدية. وإذا كان على البابوات أن يذكروا المساهمين بالتزاماتهم، فالانطباع الغالب هو أن هيوغ كان يعي حقاً تعهده بتأمين الأموال والسفن. وإذا ما ذكر ليونتيوس مخيراس قواديس أزمير سنة 1360، فهو بذلك يشير إلى عنصر راسخ في موارد المملكة البحرية. ولعله جدير بنا أن نلحظ بالمناسبة أن أنجيليو أريزو قبطان قواديس هيوغ قدّم في منتصف الخمسينات من القرن الرابع عشر هبة كبيرة لدعم الدفاع عن أزمير. على أنه، لا مجال من ناحية ثانية، لنعرف هل أن هيوغ قام بأي شيء لمساعدة الأمبراطورين البيزنطيين جون السادس كنتكوزينوس وجون الخامس باليولوغوس استجابة لدعوات البابا عامي 1353 و1356، مع أنه يبدو أنه أرسل المساعدات للأرمن في أواسط الأربعينات من القرن الرابع عشر. غير أن القرائن تشير بوضوح إلى أن هيوغ كان في القسم الأكبر من عهده ناشطاً في السعي للتصدي لأعمال النهب التركية. وبما أن قبرص كانت تعتمد في ازدهارها على تجارتها مع الغرب، فإنه من الضروري أن تبقى البحار حرة أمام السفن. وإذا كانت أزمير بعيدة بعض الشيء، فإن القرصنة التركية في المياه المحيطة برودوس وكريت كانت تشكل تهديداً مباشراً لممرات الملاحة ولتجارة قبرص؛ لذلك كان القيام بإجراءات للتصدي لها في مصلحة هيوغ بقدر ما هو في مصلحة الإسبتارية أو البنادقة.

إن الشيء الذي امتنع هيوغ عن القيام به هو إثارة عداء المماليك في مصر وسوريا، لا لأنه لم يتجرأ على الاصطدام بهم بدون مساعدة. بل لأن التجارة القبرصية مع الغرب، لا سيما بعد أن احتل المماليك أياس

عام 1337، باتت تعتمد إلى درجة واسعة جداً على توافر السلع التي تمر عبر الموانىء الخاضعة للمماليك في الجزيرة؛ ولذلك لا تكون الحرب خطرة فقط، بل هي كارثة اقتصادية كذلك. وكأن هيوغ أراد اجتناب إثارة عداء السلطان حين طلب من البابا بندكت الثاني عشر أن يأمر بوقف الدعوة للحملة الصليبية في قبرص في عام 1356. ولعل مثل هذا السبب نفسه هو الحافز على تعليمات مماثلة من كلمنت السادس في عام 1346 ثم في عام 1351. إن الذين حاربوا في الرابطات التي كانت موجهة ضد الأتراك كانوا يتمتعون بمكانة وامتيازات الجنود الصليبيين، غير أن الحوافز التي دفعت تلك القوى التي كانت تشكل هذه الرابطات هي المصلحة الذاتية والسلامة، لا المثالية المسيحية. إعلان الحرب على القراصنة الأتراك من قبل قبرص والبندقية ورودوس هام للأحوال السياسية والاقتصادية بالنسبة إليها، غير أنه لا فائدة من مهاجمة السلطنة المملوكية حتى لو كانت مسيطرة على الأماكن المسيحية المقدسة.

وبارتقاء الملك بيتر الأول (1359 ـ 1369) العرش نصل أبرز فترة مشهورة في تورط قبرص في الحركة الصليبية. في أكتوبر عام 1365 قاد بيتر الحملة التي أحرقت الإسكندرية، ووجهت بذلك أقوى ضربة أنزلها جيش مسيحي بسلطنة المماليك في تاريخها كله. قضى بين 1362 و1365 في الغرب يجند الدعم لحملته؛ والحرب التي تلت ذلك تواصلت حتى عام 1370. وتتميز هذه الفورة العسكرية عن السياسة الحذرة التي نهجها هيوغ الرابع، بالوضوح، حتى ظن، ولو خطأ، أن هيوغ ملك محب للسلام. الملحوظ بوجه عام أن بيتر كان مأخوذاً بفكرة استعادة الأراضي المقدسة؛ لقد سعى كي يعيش في أواسط القرن الرابع عشر أحداثاً

بطولية وأسطورية كما في الحملة الصليبية الأولى؛ ولقد شاء أن يستعيد لنفسه مملكة القدس، وأن يسترجع الأماكن التي تتصل بحياة آلام المسيح إلى المسيحيين. لا ريب أن مثل هذه التطلعات كانت تراود بيتر توماس، الموفد البابوي الذي توّج بيتر ملكاً على القدس عام 1360، ومثّل البابا في حملة عام 1365، كما راودت كذلك فيليب ميزيير الفرنسي الذي عمل مستشاراً لبيتر، وكرّس ما تبقى من حياته، حتى عام 1405، في محاولات تنظيم منظمته العسكرية الخاصة به باسم منظمة الآلام، وفي أحياء الحماس الصليبي في الغرب. ولقد كانت الأنباء القريبة من الحدث تصور حملة بيتر بأنها ذات أهداف تقليدية: نداءات البابا أوربان الخامس صورت الحملة بأنها «لاستعادة الأراضي المقدسة»؛ وسيرة فيليب ميزيير المعاصرة لبيتر توماس اعتبرت أن المقصود هو إعادة فتح الأراضي المقدسة من قبل جيش مسيحي يحارب بعون من الله.

إن الاعتراض الرئيسي على هذا التفسير لنيات بيتر وحافزه هو أنه يصعب التصديق بأن الملك كان يعتقد حقاً بأن جيشه قادر على انتزاع القدس من المماليك والدفاع عنها بوجه قوة العالم الإسلامي. إن صعوبات ونفقات الدفاع عن الجزيرة أو عن المعاقل الساحلية كرودوس وأزمير في وجه خصوم أقل قوة من المماليك كانت، ولا ريب، تنبهه إلى استحالة مثل هذا العمل. ولذلك يمكن القول إن توقعات بيتر الأول حين هاجم الإسكندرية كانت غير التوقعات التي عبّر عنها الحماس الصليبي آنذاك حين كان القصد تحصيل المساعدات والتشجيع على جمع المعونة من أوروبا. وعند إعلان الحملة الصليبية عام 1363، كان المعروف أن القائد لن يكون بيتر، بل ملك فرنسا. الصلح مع إنكلترا عقد عام 1360؛ عند ذاك أخذ البابا أوربان الخامس وآخرون في الغرب

يحيون فكرة القيام بحملة صليبية بقيادة فرنسية، كالتي سيطرت على التفكير حتى منتصف الثلاثينات من القرن الرابع عشر. إن حملة صليبية ملكية يمكن لها أن تجدد سمعة الملكية الفرنسية؛ وإذا كانت الأوضاع في فرنسا، التي مزقتها الحرب وأفقرتها بعد سنوات من الصراع مع الإنكليز، عنت أن الفكرة بعيدة الاحتمال، متكلفة، فالمتوقع أن الملك جون الثاني كان توّاقاً إلى المجد، وإلى المال اللذين يمكن أن يتوافرا له بفعل مكانته كمحارب صليبي. وهكذا عادت الدعوة البابوية إلى الحملة الصليبية إلى اعتماد التقليد السابق الذي طالب بأن تكون القدس هي الهدف لحملة صليبية عامة بقيادة وريث القديس لويس. ولا بد أن فيليب ميزيير وبيتر توماس، كفرنسيين، كانا يألفان هذا التقليد، حتى لو أن الحرب مع إنكلترا أفقدته المكانة البارزة التي كانت له في وقت سابق من هذا القرن. وحين قضى الملك جون عام 1364، وتسلّم بيتر مكانه قيادة الحملة، فإنه كان قائد حملة محددة الأهداف والأوضاع.

ولو أن تاريخ نصف القرن السابق كان تاريخ غزوات وغزوات مضادة من قبل القبارصة والمماليك على أراضي الخصم، لأمكن اعتبار الحملة على الإسكندرية أنها تصعيد في العمليات القتالية، إلا أنه لا إثبات البتة على هجمات منطلقة من قبرص كقاعدة، على السلطنة، منذ بداية القرن. لقد كان بيتر، من ناحية ما، يواصل سياسة سابقة. لقد عمل هيوغ الرابع على احتواء العدوان التركي بالإسهام في الاستيلاء على امير، بالسعي لكبح القرصنة، وفرض الجزية على الإمارات جنوبي الأناضول. وقد جاءت حملات بيتر العسكرية والبحرية الأولى تبين أنه سائر في خطى والده. وفي أغسطس عام 1361 قاد أسطوله لمهاجمة ساتاليا على ساحل آسيا الصغرى. كان مدعوماً من قبل الإسبتارية

وجنوى، لكنه كان معتمداً على موارده القبرصية الخاصة بالدرجة الأولى. اقتحم المدينة وطرد الحاكم المسلم، ووطد حامية مسيحية؛ الواقع أن ساتاليا تحوّلت إلى أزمير أخرى، مع العلم أن القبارصة يستطيعون هنا أن يزعموا أنهم احتلوها وحدهم، كما تحملوا مسؤولية الدفاع عنها وحدهم. إن هجمات الترك المضادة عام 1361، وعام 1362، وعام 1370 صدت، لكنها أعيدت بنتيجة حملة 1373 حين كان الغزو الجنوي لقبرص وشيك الوقوع. ثم رافق احتلال ساتاليا غزوات على أمكنة أخرى على ساحل الأناضول، بما في ذلك ميرا وأنامور، وسيق، وعلايا، وإعادة فرض الجزية على الإمارات المحلية. كذلك حدثت مناوشات بحرية. واستمر جون أمير أنطاكية يقوم بتدابيره الحازمة حين كان بيتر في أوروبا؛ وبعد عام 1364 لا نعود نسمع بهجمات القراصنة الأتراك على قبرص بالذات طوال ما تبقى من عهده. ولعل ساتاليا كانت أهم مركز تجاري على الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى، وميناءً مفيداً لتوقف السفن المتنقلة بين قبرص والغرب. والواقع أن محاولات للاستيلاء عليها جرت في أوائل القرن الثالث عشر، إذ إنها كانت، وهي بأيدي الأتراك، تشكل خطراً على المواصلات مع أوروبا. أما وهي بأيدي القبارصة فهي ذات أهمية تجارية واستراتيجية كبيرة.

وفي وقت باكر، عام 1360، كان بيتر قد وضع ميناء آخر هو غورهيغوس (كوريكوس، قديماً) تحت حمايته. الواقع أن غورهيغوس كانت في السابق تحت حكم المسيحيين غير أن سكانها الأرمن يئسوا من قدرة ملكهم على الدفاع عنهم، فتوسلوا إلى بيتر كي يحكمهم. وبقيت المدينة تحت الحكم القبرصي حتى عام 1448. وفي عام 1367 أثبت بيتر

لسكانها أن ثقتهم به هي في محلها حين تصدى بنجاح لهجوم كبير قام به الأتراك من إمارة كرمانيا المجاورة.

وفي أكتوبر عام 1362 ترك بيتر شقيقه جون مسؤولاً عن قبرص وأبحر إلى الغرب، مصطحباً معه الموفد البابوي بيتر توماس، والمستشار فيليب ميزيير، وحاشية مناسبة من النبلاء والخدم. ووصل الملك ومرافقوه إلى البندقية في أوائل ديسمبر؛ هنا استقبل الملك مكرماً معززاً؛ ثم راح هو والدوق حاكم البندقية يناقشان المخاطر التي تهدد المصالح المسيحية في الشرق. وفي مطلع يناير غادر البندقية عبر ميلان إلى جنوى حيث جدّد في 5 مارس الامتيازات التجارية التي كان هنري الأول قد منحها عام 1232. وأخيراً، بعد أن قضى نحو شهر في كل من المدينتين البحريتين العظيمتين في شمالي إيطاليا، وصل البلاط البابوي في أفنيون في 29 مارس عام 1363. وبعد يومين من ذلك، في يوم الجمعة العظيمة حمل الملك جون الذي كان يقيم في الجوار منذ نوفمبر السابق، وعدد من البارونات والنبلاء، الصليب للقيام بحملة صليبية. وكذلك فعل بيتر نفسه. وفي ذلك اليوم بالذات أعلنت الحملة الصليبية رسمياً. كانت بقيادة ملك فرنسا وكان مقرراً أن تنطلق في أول مايو عام 1365. لم يسبق قبل ذلك لملك قبرصي متوّج أن زار أوروبا الغربية. لسنا نعلم إلى أي حد كان الحافز لهذه الرحلة هو وجوب تسوية مطالبة هيوغ لوزينيان بالعرش، أو إلى أي حد كان ذلك تعبيراً عن رغبة مدروسة للظهور كقائد للمسيحية في صراعها مع المسلمين. إن الداوية القبرصي الرئيسي لهذه الأحداث، ليونتيوس مخيراس، لم يشر غير إشارة فريدة عابرة لفكرة استعادة القدس، وفسّر رحلة بيتر بأنها رد على تحدي ابن شقيقه له وتبرير لارتقائه العرش أمام البابا. غير أن ليونتيوس أخطأ في اعتقاده أن

البابا استدعى بيتر للحضور إليه شخصياً للردّ على مزاعم هيوغ. كذلك ليس في المراسلات البابوية السابقة أي تلميح إلى أن البابا كان يتوقع من الملك أن ينضم إلى الحملة، مع أن هنالك رسالتين باقيتين من بيتر، إحداهما إلى حكام فلورنسا، وثانيتهما إلى المسؤول الأمني عن مملكة نابولي، كتبتا قبل مغادرته قبرص، توضحان أن الحرب كانت في مقدمة تفكيره.

ومع أن الغاية من الحملة هي «استعادة الأراضي المقدسة»، فإن الاستراتيجية الدقيقة كما تصورها البابا وملك فرنسا عام 1363 لم تكن أكيدة أبداً. وفي تعليمات أوربان درجة من الإبهام بخصوص الهدف المباشر: هل هو سلطنة المماليك أم مناطق في بحر إيجه والبلقان واقعة تحت ضغط الأتراك؟ الظاهر أنه كان متأثراً ببيتر الذي رفعه الاستيلاء على ساتاليا إلى مكانة رفيعة؛ وفي مايو عام 1363 أعلن أن ملك قبرص سيقود حملة تمهيدية سابقة للجيش الصليبي الكبير. هنا تقرر أنه لا يستطيع تجنيد أكثر من 200 نبيل، وألفي خيال، و6000 جندي من المشاة في الغرب، من غير أن يتحدد بالضبط ما يقوم به هؤلاء.

وأقام بيتر في البلاط البابوي حتى نهاية مايو؛ بعد ذلك انطلق في جولة واسعة في أوروبا للدعوة للحملة الصليبية وتجنيد المتطوعين. تجول في فرنسا، ثم انتقل إلى إنكلترا، حيث استقبله الملك ادوارد الثالث في تشرين الثاني. قضى عيد الميلاد في باريس، ثم في الأشهر الأولى من عام 1364، زار الأراضي الخاضعة لملك إنكلترا في غربي فرنسا. لنجاح الحملة كان لا بد من استتباب السلام في أوروبا، غير أن عصابات المرتزقة الذين لا عمل لهم، ممن عرفوا «بالشركات الحرة» راحوا منذ

وقف القتال بين فرنسا وإنكلترا في عام 1360 ينشرون الإرهاب في الريف، حتى إنهم هددوا سلامة أفينيون. وكان البابا أوربان يحسب أن هذه المشكلة يمكن أن تحل بتجنيد هؤلاء «الخبراء» للحملة الصليبية؛ ولعل الفكرة كانت أن بيتر أفضل حظاً بتجنيدهم من مندوبي البابا أنفسهم. غير أن محاولات تجنيد «الشركات الحرة» لم تسفر عن شيء؛ وفي فبراير، توقف أوربان عن تلك المحاولة، ثم راح يصدر غفرانات لكل من كان على استعداد لإعلان الحرب عليها لقمعها. إن بقاء هؤلاء «الخبراء» أحراراً يصعب اجتذاب المتطوعين إلى الحملة الصليبية. وفي أبريل عام 1364، توفي الملك جون؛ وعنى موته أن التجنيد بين النبلاء الفرنسيين ازداد صعوبة، كما عنى كذلك أن قيادة الحملة الصليبية ستقع عند ذاك على عاتق بيتر. وحضر بيتر جنازة جون وتثبيت خلفه؛ ثم انطلق في مرحلة ثانية من جولته في ألمانيا، وبوهيميا وبولندا، وعاد فوصل إلى البندقية في 11 نوفمبر.

وبالإضافة إلى المشاكل السياسية والعسكرية في أوروبا، هنالك حدثان في الشرق هدّدا مصير الحملة الصليبية. في صيف عام 1363 تمرّد الحكام البنادقة في كريت على حكومة بلادهم، في وقت كان بيتر يتوقع أن يعتمد كثيراً على سفن البندقية لنقل جيشه إلى الشرق. غير أن انشغال القوى العسكرية والبحرية لجمهورية البندقية في قمع التمرد جعل مستقبل الحملة بكمالها موضع ريبة. وفي نوفمبر عرض بيتر أن يذهب على رأس بعض مجنديه في الحملة للإسهام في سحق التمرد، وفي نوفمبر التالي تعهدت حكومة البندقية بنقل 1000 خيال و2000 جندي من المشاة إلى أي مكان يريدون في الشرق لمتابعة حملتهم الصليبية بشرط أن يسهموا أولاً في القضاء على التمرد. وفي النهاية تمكنت

السلطات من تحطيم التمرد بدون مساعدة الصليبيين قبل أن تتمكن من عرقلة مخططات بيتر. أما الحدث الآخر الذي عرّض الحملة لخطر الانهيار فقد سبق أن أوجزناه. ففي عام 1364، اشتد النزاع في فمغوستا حول معاقبة اثنين من البحارة الجنويين فرّا من مركب قبرصي، وتحول إلى شغب عنيف هدّد بدوره بتوريط قبرص وجنوى في حرب كبرى. غير أن هذا الخطر لم يزل إلا في أبريل عام 1365 حين وافق ممثلو بيتر على جميع مطالب جنوى في عملية تساهل اعتبرت آنذاك مذلّة إلى أبعد حد.

وفي حزيران أبحر أسطول بيتر من البندقية، على أمل الاجتماع في رودوس بقوات من قبرص بقيادة أمير انطاكية في أغسطس. لقد صرف الملك ما يتجاوز السنتين ونصف السنة في الغرب. وإذا كان قد لاقى ضيافة سخية أثناء إقامته، فالواقع من ناحية عملية أن نجاحه في إقناع النبلاء والفرسان والمشاة بالانضمام إلى حملته كان محدوداً. وفي ذلك يروي لنا فيليب ميزيير أن بيتر توماس عمد إلى تعزية الملك الذي شعر بالإحباط لضآلة نتائج جهوده. وهنا يذكر فيليب نقل ستماية مسلح على حساب الملك ونحو خمسماية جواد في الأسطول الذي غادر البندقية، كما يذكر أيضاً أن صاحب الإسبتارية جهّز نحو مائة فارس من رودوس. إلا أنه يجعل عدد الذين كانوا بقيادة بيتر نحو عشرة آلاف مسلح (معهم 1400 جواد) بمن فيهم نحو «ألف نبيل مسلح». والانطباع الذي تتركه هذه الإحصاءات يتعزز بالأرقام التي تتناول حجم الأسطول. في ذلك يقول فيليب ميزيير إن أمير أنطاكية أتى بما يقرب من ستين مركباً من قبرص إلى رودوس، وأن مجموع سفن الأسطول بلغ نحو المائة من مختلف الأحجام والأنواع، من غير أن يعد في ذلك السفن التي جهّزها الإسبتارية. وفي اعتقاد ليونتيوس مخيراس أنه كانت في

رودوس 165 سفينة، منها 108 سفن من قبرص. ثم يقول إن نقل بيتر والغربيين تمّ في 16 قادوساً أمنتها البندقية، في حين أن فرسان سانت جون قدموا أربعة قواديس إضافية، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أية فروقات حسابية بالنسبة إلى سفن الأسطول المسيحي، وأية فروق في سعتها، لبدا لنا أن القوة التي هاجمت الإسكندرية في أكتوبر عام 1365 كانت رغم الجهود الواسعة التي بذلها بيتر لتجنيد المتطوعين في الغرب مؤلفة بصورة عامة من مقطعيه وسفنه من قبرص بالدرجة الأولى إلى جانب الأغراب الذين كانوا آنذاك في الشرق.

انطلق الأسطول من رودوس في 4 أكتوبر. آنذاك فقط أعلن الملك عن عزمه مهاجمة الإسكندرية. وتعود هذه السرية التي أحاطت بهدف الحملة الصليبية في قسم منها إلى ترك المسلمين في حال تخمين، وفي قسم منها أيضاً، إلى منع التجار الأوروبيين ذوي المصالح التجارية هناك من محاولة وقف الحملة أو إبلاغ المماليك. من المؤكد أن السر حفظ جيداً؛ لقد بقيت سلطات البندقية جاهلة الهدف الحقيقي، كما تدل على ذلك بوضوح رسائل كتبت عند مغادرة بيتر في يونيو السابق. وتقدم الأسطول بسرعة إذ وصل قبالة الإسكندرية في 9 أكتوبر. وفي اليوم التالي وصلت سفن المسيحيين إلى السواحل، وهبطت القوات التي فيها ساحقة القوات التي حاولت منعها من النزول إلى الشاطىء. والظاهر أن الحامية أخذت على حين غرة، وكانت على ما يبدو قليلة العدد بلا قيادة صالحة للتصدي بنجاح. وتمكن جنود بيتر من شق طريقهم بالقوة إلى المدينة بإحراق بوابة دار الجمرك، حتى إن المدافعين المسلمين عمدوا فور ذلك إلى الفرار. ثم اندفع الغزاة الصليبيون في أعمال النهب والقتل والتدمير؛ حتى أملاك التجار الغربيين نهبت كأي شيء آخر ذي قيمة.

كذلك دمرت بوابتان من ثلاث بوابات نحو البر، ولولاها كما يقول، النويري في أوسع عرض لهذا الهجوم، لتمكن المسيحيون من الاحتفاظ بالمدينة.

هنا نشأت المشكلة: ماذا بعد ذلك؟ القوات المملوكية في ثكناتها في القاهرة، ولا ريب أنها ستتوجه إلى الإسكندرية بأسرع ما يمكن. وبتدمير بوابات المدينة، وبعد الإخفاق في محاولة هدم جسر أساسي على مجرى النيل في فوّه، ووقف زحف القوات المصرية بالتالي، تبين أن الحفاظ على الإسكندرية مستحيل. لقد عجز بيتر عن السيطرة على قواته، واستحال الدفاع عن المدينة، وبات جنود الحملة حريصين على الفرار بما نهبوه. إن المصادر المسيحية متفقة على أن بيتر نفسه أراد الاحتفاظ بالإسكندرية؛ لقد كان يحظى بدعم فيليب ميزيير وبيتر توماس، أقوى نصيرين متحمسين لمبدأ الصليبية، ولكن الغربيين، والإستبارية وأشقاء بيتر نفسه، كانوا إذا صدقنا ما يقوله فيليب، يصرّون على الانسحاب. وبناء على ذلك، وفيما كانت قوات المماليك تدخل الاسكندرية من جهة القاهرة في 16 أكتوبر، كان بيتر وآخر جندي من قواته يتوجهون إلى قبرص.

لقد كانت أحداث أكتوبر عام 1365 مثيرة إلى حد بعيد، ولكن الإنجازات كانت ضئيلة؛ ومن ناحية أخرى كانت قبرص قد تورطت في حرب مع السلطنة. أما من وجهة نظر مسيحية، فإن العداء الراسخ للنشاط البحري وللحملات العسكرية المنقولة بحراً، مما تميّز به النظام في قسم كبير من تاريخه عنى أن المماليك لم يكونوا في وضع يستطيعون معه شن هجوم ثأري، على أنهم بعد اقتحام الإسكندرية عمدوا إلى إنشاء

أسطول، إلا أنه لم يكتمل ولذلك نجت قبرص من أي تخريب. ثم إن الذي حدث لم يصفق له جميع أبناء أوروبا الغربية. البنادقة والتجار الغربيون الآخرون، كانوا مستائين أشد استياء لعرقلة تجارتهم. بضائع كثيرة فقدت نهباً أو صودرت عقاباً لأصحابها؛ والتجار وسواهم من الغربيين الذين كانوا في أراضي السلطان آنذاك اعتقلوا كأسرى. وللاستفادة من تدمير الإسكندرية، كان لا بد من متابعة الهجمات على نطاق واسع ضد سواحل مصر وسوريا. وما أن وصلت أنباء حوادث أكتوبر إلى الغرب حتى بدا أن المزيد من مجالات الأمجاد العسكرية وتأمين المغانم سيؤدي إلى مجندين جدد في قوات بيتر. والواقع أن عدداً من النبلاء المحبين للمغامرات أمثال غاسكون فلوريموند ليسبار قدموا إلى قبرص في سنة 1366. لكن الأمل بأن يأتي إلى الشرق كونت سافوا، وملك فرنسا، أو برتراند دي غيسكلان أكثر القادة الفرنسيين قدرة، كان مستحيل التحقيق. شائعات الصلح انتشرت في الأجواء؛ واتهم ليونتيوس مخيراس البنادقة بأنهم كانوا يشيعونها زوراً. وكان القليلون من القادة الغربيين على استعداد للانهماك في تجهيز قوة بحرية للخدمة لدى القبارصة، غير أنهم سرعان ما وجدوا أن القتال قد توقف[101].

ومن ناحيتهم كان المماليك يتوقعون هجمات أخرى ولذلك بدأوا على الفور بالضغط على المدن التجارية التوّاقة بدورها إلى العودة إلى الحالة الطبيعية، كي تعمل من أجل الصلح. والظاهر أنهم في مطلع عام 1366 أرسلوا سفارتين إلى البندقية وجنوى؛ وكذلك بدورهم أرسل البنادقة في يناير سفراء إلى السلطان لتأمين الإفراج عن التجار المعتقلين واستئناف العلاقات العادية. وهنا أصر المماليك على أنه يستحيل عقد معاهدة صلح مع البندقية قبل التوصل إلى تسوية مع قبرص. وحيال

ذلك كان لدى البنادقة كل المبررات للضغط على بيتر لافتتاح المفاوضات. وتحقق بعض النجاح؛ اقتنع بيتر بتحويل أسطوله عن هجوم كان قيد الإعداد على بيروت، أهم الموانىء على الساحل السوري، إلى آسيا الصغرى وبدعوة المسلمين إلى إرسال سفارة لهم إلى قبرص. اجتمع الموفدون بالملك في نيقوسيا في أوائل يونيو، غير أن بيتر تقدم بمطالب غير واقعية ثمناً للصلح، ومنها التنازل عن الأراضي السابقة لمملكة القدس، بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى، وإعفاء التجار القبارصة من الرسوم الجمركية؛ ثم عاد فبعث سفراءه إلى السلطان لمتابعة الحوار. الواقع أنه كان يلعب لعبة كسب الوقت ريثما يعيد تنظيم قواته لشن هجوم جديد. والظاهر أن البنادقة اعتقدوا، أو بدا على الأقل أنهم اعتقدوا أن الصلح وشيك، حتى إنهم أقنعوا البابا بإصدار إجازات جديدة لهم للاتجار مع مصر. ولكن بيتر أرسل فيليب ميزيير إلى الغرب في أواخر يونيو ليوضح أنه في سبيل تخطيط غزو جديد للسلطنة في أغسطس التالي، ويسعى لتأمين الدعم العسكري والدبلوماسي. عند ذاك سحب البابا إجازات التجارة التي كان قد منحها للبنادقة؛ وردت البندقية على ذلك بمنع رعاياها من الإسهام في حملة بيتر وبحظر تصدير الأسلحة والجياد إلى قبرص. ثم رتّبوا إلى جانب ذلك أمر إهداء صقور إلى الأمير يلبغا الذي كان بصفته أتابك العساكر هو الشخصية البارزة في القاهرة.

واستغرق تجمع الحملة الجديدة أكثر مما كان متوقعاً. وقبل أكتوبر لم تنته اتصالات بيتر الدبلوماسية بالسلطان بسجن موفده وباعتقال المماليك للغربيين الذين كانوا غير حكماء باستئناف التجارة. وفي نوفمبر كان الأسطول جاهزاً، كان مؤلفاً من 56 قادوساً و60 سفينة أخرى؛ وكان

يضم فرقة من رودوس. وبذلك كان مشابهاً للأسطول الذي دمّر الإسكندرية في السنة السابقة. غير أن إقلاعه تأخر بسبب مرض الملك. عند ذاك زعم بيتر في رسالة أعرب فيها عن استيائه من البنادقة بسبب تصرفاتهم المعرقلة أنه يرغب في إعطاء تجار البندقية في موانىء المماليك مجال الفرار. ولم يُقلع الأسطول قبل مطلع يناير؛ ولكنه ما أن أقلع حتى تشتت بفعل العاصفة. خمسة عشر قادوساً، بما فيها القادوس الذي يقوده فلوريموند لسبار نهبت ميناء طرابلس السوري، فيما عادت السفن الأخرى إلى المياه القبرصية بدون أن توجه، على ما يبدو، أية ضربة.

الظاهر أن هذا الفشل جاء بمثابة نقطة تحول. كان بيتر يدرك أن الفشل أو الجمود في المجال العسكري لا بد أن يؤدي إلى وقف أي دعم إضافي من الغرب. كذلك كان يتعرض للمزيد من الضغط من القطلونيين والجنويين والبنادقة من أجل عقد الصلح. موارد السلطنة أكبر بكثير من موارده؛ والحرب بالغة الكلفة. ومنذ أكتوبر عام 1366 كان البابا قد أوضح لبيتر أنه لا يمكنه أن يتوقع الحصول على دعم مالي ذي أهمية من المداخيل البابوية من الضرائب، وأخذ يشير عليه بوقف الأعمال القتالية. ولذلك ما أن وصل موفدو المماليك الجدد إلى قبرص في فبراير، حتى كان بيتر ميالاً إلى الإنهماك في مفاوضات جادة. وأعدت مسودة معاهدة الصلح؛ وفي مارس توجهت إلى القاهرة سفارة برئاسة جايمس نورس الخيال التركي (اليوزباشي)، لتأمين المصادقة عليها، غير أن السلطان رفض ذلك.

هنا كانت اهتمامات بيتر قد تحوّلت بفعل هجوم تركي على غورهيغوس في فبراير ومارس؛ ثم إن حاميته الخاصة أعلنت العصيان

في مايو. لقد فرض الحدثان اتخاذ تدابير عسكرية حاسمة، والمرجح أن هذين الحدثين هما اللذان شجعا المماليك على التشدّد في المساومة. وفي يونيو عاد جايمس من مصر مصحوباً بموفدين مسلمين لإجراء مفاوضات لعقد معاهدة جديدة أقل ملاءمة. وجدوا أن الملك كان في رودوس حيث قصد بعد قمع التمرد في ساتاليا؛ آنذاك لم يكن في حالة يقبل فيها بأي صلح بأي ثمن كان. اعتقل الموفدين وراح ينظم قواته للقيام بهجوم آخر على موانىء شمالي سوريا. وفي أواخر سبتمبر أبحر الأسطول وهاجم طرابلس؛ بعد ذلك اتجه شمالاً، مخرباً طرطوس وفالانيا. وحيال العجز عن إنزال قوة في اللاذقية، اندفع إلى ميناءي مالو وأياس في كيليكيا حيث دخلت القوات إلى المدينة لكنها واجهت مقاومة صلبة عند الحصن المواجه للبر. وفي أكتوبر انتهت الغزوة وأعلن بيتر أن أي بحار مسيحي يقوم بأعمال القرصنة ضد المماليك يستطيع أن يتخذ من فمغوستا قاعدة لذلك.

وتلك كانت الغزوة الأخيرة التي قادها بيتر، إذ بعد عودته إلى قبرص بوقت قصير، توجه بزيارة إلى أوروبا. ويفسر الرواة هذه الزيارة بحاجته إلى تحصيل شرفه في نزاع له مع فلوريموند لسبار، صاحب غاسكون. وفي صيف عام 1367، كان بيتر وفلوريموند أثناء وجودهما في رودوس قد اشتبكا بنقاش حام انتهى بالتعهد بالقيام بمبارزة في بلاط ملك فرنسا. على أن بيتر كان حريصاً على إحياء الاهتمام الغربي بحربه الذي فتر. أبحر إلى نابولي، وفي مارس عام 1368 وصل روما حيث كان البابا أوربان يقيم منذ أكتوبر السابق. وأثناء الفصح تمكّن البابا من إجراء تسوية بين الملك وخصمه، وفقاً لشروط بيتر على ما يبدو. غير أن الملك

فقد الدعم البابوي الذي كان يتمتع به. لقد استأنف البابا إصدار الإجازات للبنادقة للاتجار مع موانىء المماليك؛ وأثناء وجود بيتر في روما أصرّ على الملك بأن يسمح لسفراء البندقية وجنوى بأن يتفاوضوا لعقد الصلح باسمه. وفي مايو استسلم بيتر لضغط البابا ووجّه التعليمات إلى السفارة بأن تطالب بالشروط ذاتها التي وضعت في مسودة معاهدة عام 1367. بعد ذلك اتجه إلى البندقية وأبحر إلى قبرص في سبتمبر. كل أمل كان له بكسب المزيد من المساعدة العسكرية والمالية ذهب أدراج الرياح.

هنا يسعنا أن نروي بإيجاز حكاية المرحلة الأخيرة من الحرب. السفارة البندقية الجنوية المشتركة إلى السلطان انتهت بالإخفاق. وفي كانون الثاني، عام 1369، اغتيل بيتر. وفي وقت لاحق من تلك السنة، وَجّه جون أمير انطاكية الذي كرر دعوة بيتر للقيام بأعمال القرصنة ضد المسلمين، حملة صغيرة هاجمت مختلف الموانىء على السواحل السورية والكيليكية والمصرية. وأخيراً استؤنفت المفاوضات بين قبرص ورودوس وجنوى والبندقية وسلطنة المماليك، وبعد جولة طويلة وشاقة من النشاط الدبلوماسي، صدق الصلح أخيراً في أكتوبر عام 1370.

وهكذا فإن قصة حرب بيتر هي قصة آمال كبيرة وبداية مثيرة أعقبها فقد الزخم، والمأزق العسكري والدبلوماسي، وتزايد الخيبة، ثم عقد الصلح أخيراً، لكنه كما يتبين لنا مع انعدام وجود النص، لم يحقق أي شيء لقبرص. هنا يبقى السؤال التالي: ماذا كان بيتر يأمل أن يحقق؟ لقد ألمحنا من قبل إلى أن فكرة استعادة الأراضي المقدسة كانت محض دعاية للإستهلاك في الغرب. القدس هدف مغامرة في عنصر الحماس لحملة

صليبية، أو لعلها التبرير اللاحق لأعمال بيتر، إلا أنها لم تكن الغاية العملية، ولا بد أن بيتر كان يعلم ذلك. وإذا كان لاحتلال ساتاليا أن يعتبر متابعة أو تطوراً لسياسة سابقة، ألا يمكن لنا بالتالي أن ننظر إلى محاولة احتلال الإسكندرية أو تدميرها على هذه الأسس نفسها؟ وبمقدار ما يتصل بمفاوضات عامي 1367 و1368، إن النص المتوافر لنا لمسودة عام 1367 يبين أن الهدف الأول لبيتر هو حمل السلطان على القبول بتسهيلات تجارية تفضيلية، وخفض الرسوم الجمركية، والامتيازات والضمانات القانونية لتجار قبرص المتعاملين في أراضيه. وهو لذلك كان يستخدم العدوان والتهديد بالعدوان لا لتحقيق مكاسب إقليمية في مناطق كانت خاضعة للسلطة المسيحية، بل للحصول على منافع تجارية لرعاياه على حساب نظام المماليك، وبالتالي على حساب منافسي القبارصة من تجار الغرب في مصر وسوريا. هنا، يكمن مفتاح استراتيجية بكمالها. لقد رأينا أن ازدهار قبرص كان يتدهور؛ وبصورة متزايدة كان التجار الغربيون يتجنبون الجزيرة، ويتعاملون مع المسلمين مباشرة. ولو أن بيتر استطاع الاحتفاظ بالإسكندرية لكان تمكن من استثمار تجارتها لمصلحته، ولاستولى بالتالي على قسم كبير من التجارة بين الغرب والشرق. غير أنه رغم فشله في الاحتفاظ بالإسكندرية، ظل يأمل بالعودة بفمغوستا إلى شيء من ازدهارها السابق بعرقلة الأنماط التجارية السارية والحصول على شروط أفضل لتجاره الذين يكونون آنذاك في وضع أفضل للقيام بدور الوسطاء، وبيع السلع الشرقية للغربيين. وإذا كانت الحرب التي شنّت على القراصنة الأتراك، كاحتلال ساتاليا، تستهدف حفظ المصالح التجارية القبرصية وحمايتها، فلمَ لا تكون كذلك الحرب مع السلطان ومحاولة احتلال الإسكندرية؟

بعد البداية المجيدة جاءت خاتمة عهد بيتر بمثابة منحدر مثير للحزن. ولدى عودته صفر اليدين من زيارته الثانية إلى الغرب كانت احتمالات تحقيق أية فائدة دائمة لقبرص من الحرب قد أخذت تتلاشى بسرعة. ولا ريب أن الشعور بالإخفاق كان هو السائد، وإن أثر ذلك في بيتر، كما تشير الحكايات التي يرويها الرواة الكثر، كان أضعاف قدرته على التمييز والحكم. وهنالك أمثلة عديدة للتدليل على ذلك؛ وهي تتراوح بين خصومته مع فلوريموند لسبار وقبول الملك لتحدي المبارزة معه؛ والحكاية الغريبة التي يصعب تصديقها حين اعتقل بيتر في اليوم السابق لوفاته جون غوراب، المسؤول عن حاشيته، وهدّده بإعدامه، لأنه عجز عن تأمين الزيت للهليون. وفي إطار مثل الفروسية العليا المنطوية على المبالغة في القرن الرابع عشر، كان سفر الملك مثل هذه المسافة البعيدة بقصد خوض مبارزة مع نبيل غريب يوحي بانعدام الإحساس بالعلاقة السليمة بين الأشياء. ورغم ذلك، فإن الروايات التي تتناول هذا العهد تقدم هذه المبارزة باعتبارها السبب الرئيسي لرحلة الملك إلى أوروبا عام 1367: وإذا قيل إن هؤلاء الرواة كانوا يبرزون ناحية حساسة في هذه الزيارة، فإن هذه الرؤية لهذه المرحلة تجد لها ما يدعمها في رسالة بابوية للملك آنذاك أمره فيها بالامتناع عن المبارزة ونبّه إلى أن مثل هذا العمل إن هو غير انتقاص لكرامته الملكية.

بذلك أصبح المسرح مهيأً للفصل الأخير. فإزاء تصرفات الملك غير القانونية بل سفه إجراءته، ورفضه إجراء أي تعديلات، بادر أخواه، جون أمير أنطاكية، وجايمس ونبلاء قبرص إلى الاجتماع وقرروا أن يتقدموا من الملك كمجموعة ليطلبوا منه تجديد يمينه بخصوص الحكومة الصالحة والحفاظ على القانون، كما كان قد أقسم عند استلام العرش.

غير أن عدداً من المقطعين قرروا أنه سيعود عن وعوده، ولذلك اتخذ قرار بقتله. وفي الساعات الأولى من صبيحة يوم الثلاثاء في 16 يناير انطلقت مجموعة مؤلفة من أمراء العائلة المالكة، والفرسان الذين كانوا عازمين على القتل، وسواهم ممن كانوا، على ما يظهر، غير عالمين بالمقصود، في طريقهم إلى القصر، حيث أقدم ثلاثة منهم على قتل الملك القبرصي.

وجاء اغتيال بيتر يبرز تأثيرات الحرب على المجتمع القبرصي. إن التوترات والإخفاقات تركت تأثيرها على الملك نفسه، ولا بد أنها تفسر إلى حد ما تصرفاته الاستفزازية الخاطئة. لدفع نفقات الحرب كان لا بد من استدانة مبالغ كبيرة، ومن التخلي عن موجودات خاصة بالتاج، مما ترك لخلفائه تراثاً من عجز. كذلك كان النبلاء معرضين للضغوط. الظاهر أنهم كانوا سعداء للقيام بدورهم في الحملات إلا أنهم كانوا قلقين من النفقات، متخوفين بشأن التهديد الذي تتعرض له أوضاعهم بسبب وجود رجال جدد من الخارج. وهنالك مجموعة أخرى لا بد أنها كانت قلقة من المضامين المالية للصراع، كذلك لا بد أنها كانت متخوفة من العواقب البعيدة المدى المحتملة بالنسبة إلى التجارة إذا تعذر التوصل إلى نتيجة مرضية، هي مجموعة التجار القبارصة. كثيرون منهم ينتسبون إلى سكان فمغوستا من غير اللاتين؛ ولا ريب أنهم تضرروا لتوقف التجارة بين فمغوستا والموانىء الواقعة تحت سيطرة المماليك. لمنفعة مثل هؤلاء كان بيتر قد ألحّ على الامتيازات التجارية في مفاوضاته التجارية الفاشلة مع السلطنة في عامي 1367 و1368. هؤلاء هم الذين يمثلون أول من يستفيد من الاستيلاء على الإسكندرية أو من انعاش التجارة عبر قبرص على أثر هزيمة المماليك. وليس من المدهش أن تكون مفاوضات

الصلح التي فوضت عام 1368 إلى أفراد في الأوساط التجارية الجنوية والبندقية، من خصومهم، قد انتهت إلى الفشل.

إن تخريب الإسكندرية والغزوات التالية أضرت إلى حد بعيد بمصالح التجار الغربيين. وقد سبق لنا أن ذكرنا أن البنادقة عمدوا سنة 1366 إلى منع سفنهم من نقل الرجال والمواد الحربية إلى قبرص، كما أنهم اتهموا بنشر الشائعات عن الهدنة للحيلولة دون مواصلة التطوع في الغرب. هدفهم هو عقد الصلح مع السلطان، والإفراج عن تجارهم وبضائعهم ثم استئناف العمليات التجارية بأسرع ما يمكن، وقد زودوا بإجازات بابوية جديدة، كذلك نهج القطلونيون سياسة مماثلة. وفي ربيع عام 1366 وجه ملكهم بيتر الرابع الأرغواني سفراءه إلى السلطان يتنصل من حملة عام 1365، ويطلب الإفراج عن التجار القطلونيين الذين اعتقلوا على سبيل الانتقام. وفي الوقت نفسه اتخذ تدابير في حق رعاياه الذين عرف أنهم شاركوا في نهب الإسكندرية، ثم حين جاء فيليب ميزيير في عام 1367 إلى أراغون بحثاً عن معونة عسكرية لحرب بيتر، رفض الإسهام في ذلك. وبعد عام 1365 استؤنفت التجارة بين أوروبا والسلطنة بسرعة ملحوظة رغم أن الغزوات وأعمال القرصنة القبرصية اللاحقة، وتقلبات مزاجية حكومة المماليك عنت أن سلامة التجار بقيت غير مضمونة.

وأدت الحرب إلى إفساد العلاقات بين قبرص والأوساط التجارية الغربية وجعلها أكثر حدة، وإلى زعزعة تجارة قبرص نفسها في موانىء السلطنة. على أن خطراً آخر ظهر بالنسبة إلى تجارة الجزيرة بدءاً من سنة 1366 هو أن حكومة البندقية بدأت برعاية قواديس وقوارب في طريق

جديدة إلى بيروت. وإذا كان تغيير الطرق التجارية في آسيا قد أدى إلى نمو الإسكندرية لتكون قاعدة لبهارات الهند والشرق الأقصى، وإلى تدهور الطرق عبر كيليكيا وشمالي سوريا ثم عبر قبرص بالتالي، فإن تطور التجارة المباشرة بين سوريا والغرب، في حين أن بيروت، المنفذ الرئيسي لدمشق هي الميناء الأهم على الساحل السوري، سيكون ضربة أخرى لقبرص. إن هذا سيعني أن التجار الغربيين بتجنب فمغوستا وبالتعامل مباشرة مع المسلمين، سيتجاوزون الوسطاء القبارصة. صحيح أن التجار الغربيين كانوا يتاجرون مع الموانىء السورية باستمرار إلى حد ما؛ أما الآن وقد أصبحت حكومة البندقية تنشط هذه الطريق، فمن المحتمل أن تزداد نسبة التجارة المباشرة بين سوريا والغرب على حساب التجارة عبر قبرص. والواقع أن تغيير الطرق التجارية وتأثير الطاعون الأسود بالإضافة إلى فقد الثقة بنتيجة مهاجمة الإسكندرية، كل ذلك عنى نهاية ازدهار قبرص في مجال التجارة عبر المسافات الطويلة. إن الحرب التي شنّها بيتر بقصد تمكين الجزيرة من استعادة بعض حصتها في التجارة الدولية، كما قيل، نجحت في الحقيقة في زيادة هذا التدهور، تلك كانت مغامرة انتهت بالخسارة. ثم جاء استيلاء جنوى على فمغوستا في عام 1373 والنهب الذي رافق ذلك بمثابة الكارثة النهائية.

ومن وجهة نظر البلدان المسيحية الغربية، مقرونة بالحكمة التي تتأتى بعد الحدث، يمكن لنا أن ننظر إلى الحملة الصليبية باعتبارها غلطة كبيرة. إن حملات الستينات في القرن الرابع عشر على مصر وسوريا حولت الأنظار إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط، بعيداً عن بحر إيجه في الوقت الذي كان فيه الأتراك العثمانيون يعملون من أجل توطيد

وضعهم على الجانب الأوروبي من البوسفور. وخلال جيل واحد استطاعوا اجتياح قسم كبير من البلقان. وبالنسبة إلى ما يتعلق بأوروبا كان مسرح الصراع مع المسلمين قد انتقل بصورة حاسمة، وبالتالي تركت قبرص كمركز بعيد ناءٍ لا علاقة له بما يجري. وباستثناء ما قام به المارشال بوسيكو عام 1403 من غزوة صغيرة ضد سوريا، ثم بعض أعمال القرصنة العرضية، لم تقع بعد ذلك أية حملات مسيحية على سلطنة المماليك. وإلى هذا الحد كانت الحملة على الإسكندرية الفصل الأخير في مسلسل بدأ بالحملة الصليبية الأولى والاستيلاء على القدس عام 1099.

لقد قضت الحرب الجنوية على الازدهار، لخمسين سنة تالية تراوح الملوك بين محاولات متعمدة للاستيلاء على فمغوستا بالقوة، ومحاولات تهدئة جنوى بدفع الجزية إليها. وفي الخطتين لم يحققوا أي نجاح. الخسارة التجارية ونضوب السبائك مما كان ينجم عن هذه الحالة خطران إلى درجة كافية؛ واشتدت الحالة بانتشار الجراد والطاعون مما أدى بالنتيجة إلى خفض اليد العاملة في الجزيرة. وفي هذه الحالة لم يعد لقبرص أن تلعب أي دور إيجابي في استمرار الصراع بين المسيحية والإسلام. وفي أية حال إن مسارح هذا الصراع كانت قد انتقلت بعيداً عن الطرف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. ولئن كان القرن الأخير من الحكومة الملكية تميز بأزمة سياسية وبضعف اقتصادي وعسكري، فإن فترة القرنين قبل عام 1373 شهدت درجة ملحوظة من الاستقرار والازدهار كانت كافية لجعل مملكة قبرص تبرز كأحد أنجح النظم الغربية التي أقامها الصليبيون في المشرق أو في الأراضي البيزنطية حول بحر إيجه.

المحتويات